المنهج عند المستشرقين

الأستاذ الدكتور
عبد العظيم الديب
أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول

[ليس هذا البحث نقدًا لأعمال المستشرقين ، ولا ردًا لمزاعمهم ، ولا دفعًا لتزييفهم . إنما هو محاولة لبيان قيمة المنهج في أعمال المستشرقين ، ومدى التزامهم به ، واحترامهم له . ونرجو أن تتاح الفرصة لبسط هذا الموضوع ، بصورة أوفى ، وأدلة أكثر .]

لمـــاذا نكـــتب ؟!
ولمـــن نكتـــب ؟!

من هنا من داخل الموقع الفكري ، والحصن الثقافي الذي مازال مهددا من داخله يجيء كلامنا موجها إلى « المستغربين » لا إلى المستشرقين ، إلى جماعة من أبناء أمتنا ، ينطقون لغتنا ، ويتكلمون بلساننا ، ولهم ملامحنا وسمتنا ، ولكن قلوبهم غير قلوبنا ، فقد « استلبوا حضاريا وثقافيا وسقطوا في أسر الحضارة الغازية »[1].

فإلى هؤلاء نتوجه بكلامنا .

نؤكد ذلك حتى لا يقول قائل : ألم تفرغوا من المستشرقين بعد ؟ أما زلتم مشغولين « بسب وشتم » المستشرقين ؟ إنكم مازلتم تبددون الجهود ، وتضيعون الأوقات ، في الحديث عن المستشرقين ، والأولى أن تبذلوا جهودكم فيما ينفع من بحث مشكلات أمتكم وقضاياها . . .

لا يقولن ذلك قائل ، فنحن لا يعنينا أمرُ المستشرقين ، وإنما مأساتنا في « المستغربين » الذين مازالوا - رغم كل ما انكشف من خَبء المستشرقين ومستورهم - يحملون أفكارهم ويعيشون بمفاهيمهم ، وهؤلاء « المستغربون » هم الذين ورَّثهم الاستعمار - قبل أن يرحل عنا - قيادة الفكر ، والتثقيف ، والإعلام جيلا بعد جيل ، ومكّن لهم من وسائل القيادة وسلطانها .

هؤلاء « المستغربون » هم مأساتنا ، هؤلاء الذين ديدنهم « الاستخفاف » بتراث أمتنا ، بتراث كامل متكامل ، بلا سبب ، وبلا بحث وبلا نظر[2]، . . . وأبشع من ذلك هذا

---

(1) هذا الوصف الذي اخلعه على هؤلاء « المستغربين » ليس من عندي ، وإنما هو - لحسن الحظ - وسام أهداه إليهم المستشرق الفرنسي المعاصر (جاك بيرك) حين قال في محاضرة له بالدوحة : « في العشرينات عندما بدأت المقاومة بقصد تصفية الاستعمار اكتُشفت أو بدأت ظاهرة جديدة ، وهي الانغماس الحضاري ، أي أن تسقط كضحية في أغوار حضارة الغير ، أي أنك تصبح عضوا في حضارة الغير مع خسران حضارتك الشخصية ، ومن العجيب أن تبدأ هذه الظاهرة في وقت ظهور المقاومة للاستعمار » أ .هـ بنصه (ولا تعليق).

(2) هؤلاء الذين يستخفون بتراث أمتنا ، لو سألت أحدهم ماذا يعرف عن هذا التراث ؟ لوجدت أنه لم يقرأ عنه إلا صفحات من كتابات المستشرقين ، ولو أردته على أن يقرأ صفحة من كتاب من هذا التراث الذي يستخف به - لرأيته عاجزا كل العجز ، ويغطي عجزه بكبرياء وترفع عجيب .

الإرهاب الثقافي الذي يمارسونه بلا هوادة ولا رحمة ، هذا الإرهاب الذي جعل ألفاظ (القديم) و (الجديد) و (التقليد) و (التجديد) و (التخلف) و (التقدم) و (الجمود) و (التحرر) و (ثقافة الماضي) و (ثقافة العصر) - سياطا ملهبة : بعضها سياط حث وتخويف لمن أطاع وأتى ، وبعضها سياط عذاب لمن خالف وأبى[3].

من أجل هذا نكتب عن المستشرقين ، وفساد مناهج المستشرقين ، لا أملا في أن يثوب هؤلاء (المستغربون) ، أو تنقشع عنهم الغشاوة فهم (سادة) و (قادة) وأصحاب (جاه) و (سلطان) و (طيلسان) ألفوا أن يسمع لهم الناس ، ويطيعوا وأن يوجهوا الفكر والرأي ، فكيف يسمعون أو يقرءون ؟؟

وإنما الأمل في ناشئة من أبناء أمتنا ، مازالوا يتحسسون طريقهم ، عسى ألا يفتنوا بما افتتن به (الأساتذة الكبار) فمن حق هذا الجيل الناشيء ، وهذا النبت البازغ ، أن نُبصِّره بقضية أمتنا ، حتى يعرف خَبْأها ، ويدرك سرها ، فلا تخدعه عن نفسه وحقيقته تلك (الصفوة) التي (انبهرت) بالغرب ، (فاندحرت) وظنت هذا الاندحار هو الرقي بعينه ، فراحت لأكثر من قرن ونصف تجذب أمتنا وراءها . ولولا أصالة راسخة ، وقوة ذاتية في هذه الأمة ، لمسخت كما مسخ هؤلاء (المستغربون) ولكن شاء الله أن تستعصي أمتنا على المسخ والتشويه فغدًا - إن شاء الله - تعلو رايتها وتحمل رسالتها ، رسالة السماء ، إلى كل فجاج الأرض تحقيقا لوعد الله ، ووعد رسوله صلى الله عليه وسلم .

أهـــــداف المســـتشـــرقـــين :

تُقدّر الأبحاث والكتب التي كتبها (المستشرقون عن الإسلام ، في الفترة من مطلع القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين ، بنحو ٦٠٠٠٠ ستين ألف كتاب !! . فلم كل هذا الاهتمام ؟؟ لم كل هذا العناء ؟؟ ستون ألف بحث وكتاب ، في تاريخ الإسلام ، وعقائده ، ومذاهبه ، وفقهه ، وسيرة نبيه .. الخ .. لم كل هذا ؟!!

إن الاستشراق يرمي من وراء ذلك إلى غايتين :

أولاهما - حماية الإنسان الغربي من أن يرى نور الإسلام ، فيؤمن به ، ويحمل رايته ويجاهد في سبيله ، كما كان من المسيحيين في الشام ، ومصر ، والشمال الإفريقي ، وأسبانيا ، من

---

(٣) شيخنا الجليل محمود محمد شاكر : لمحة من فساد حياتنا الأدبية : ١٢٢ ، ١٢٣ وهي رسالة جعلها مقدمة لكتابه المتنبي (بتصرف يسير) .

قبل . حين دخل الإسلام هذه الأصقاع ، فدخل أهلها في دين الله أفواجا ، وصاروا من دعاة هذا الدين الحنيف ، وحماته والمنافحين عنه .

« بل أعجب من ذلك أيضاً أن دخلوا في العربية دخولا غريبا ، وصار لسانهم لسانها ، بل أعجب من ذلك أيضا ، أن خرج من أصلابهم كثرة كاثرة من العلماء الكبار ، الذين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم[٤] » .

كانت هذه غاية الاستشراق منذ نشأته ، محاولة تبشيع صورة الإسلام وأهله ، حتى لا يتتابع من بقي من رعايا الكنيسة على الدخول في الإسلام مثلما فعل أضرابهم من أهل الشام ومصر والشمال الإفريقي ، والأندلس .

كان هذا الفزع يسوق حركة الاستشراق منذ نشأته ، ويوجهه لتعبئة أتباع الكنيسة ، ورعاياها ، وتجييشهم ، ووضعهم تحت السلاح دائما .

وثانيهما[٥] - (الغاية الثانية للاستشراق) هي معرفة الشرق ، ودراسته ، أرضه ، ومياهه وطقسه ، وجباله وأنهاره ، وزروعه وثماره ، وأهله ، ورجاله ، وعلمه وعلمائه ودينه ، وعقائده ، وعاداته ، وتقاليده ، ولغاته و . . . و . . . كل ذلك لكي يعرف كيف يصل إليه ، فقد ظلت دار الإسلام مرهوبة مخوفة ، لم تستطع الصليبية المقهورة أن تحاول - مجرد محاولة - اختراقها لعدة قرون ، وكانت المناوشات ، والاحتكاكات على الثغور والأطراف تحسم دائما لصالح الإسلام والمسلمين ، ولما حاولت الصليبية بجحافلها الغاشمة اختراق ديار الإسلام في مطلع القرن السادس الهجري ، رجعت بعد نحو قرنين (٤٨٩ - ٦٩٠ هـ) من الزمان مقهورة مدحورة .

ولكنها ما فتئت تدبر وتقدر ، وتحاول الالتفاف حول ديار الإسلام ، لما استعصى عليها اختراقها ، وكان الاستشراق هو رائدها الذي يرتاد لها الطريق .

« كان المستشرقون جند المسيحية الشمالية ، الذين وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر ، ورضوا لأنفسهم أن يظلوا مغمورين ، في حياة بدأت تموج بالحركة ، و الغنى والصيت الذائع ، وحبسوا أنفسهم بين الجدران المختبئة وراء أكداس من الكتب ، مكتوبة بلسان غير لسان أممهم التي ينتمون إليها ، وفي قلوبهم كل اللهيب الممض الذي في قلب أوربة والذي أحدثته فجيعة

---

(٤) محمود محمد شاكر ، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ٥٧ .

(٥) كان من غاية الاستشراق ، وهدفه أيضا نقل علوم الإسلام التي كانت مصباح النهضة الأوربية وأساسها ، ولكن لم نعرج على ذلك في هذه العجالة ؛ لأنه ليس من موضوع هذه المقدمة .

سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام »[٦].

ومن هؤلاء كان جيش من أهل الخبرة بكل ما في دار الإسلام قديما ، وما هو كائن فيها حديثا من دقيق العلوم عند خاصة المسلمين إلى خفي أحوال المسلمين ، من عاداتهم ، ومعايشهم ، وطرائق أفكارهم ، وخصائص حياتهم إلى علم وثيق بشأن دولهم وأقاليمهم ، وبلدانهم التي تغطي أكبر رقعة من الأرض .

وهم قد جمعوا كل ذلك ، وعكفوا عليه ، وتأملوه ، ودرسوه ، ونظموه ورتبوه بعناية فائقة ، وبهمة وجلد وتنبه ونفاذ بصر .

فكل دارس منهم مأمون عند كل أوربي ، من أول طبقة الرهبان ، والساسة إلى آخر رجل من جماهير الناس ـ مأمون على ما يقوله ، مصدق فيما يقوله .... متصف بصفتين لا بد منهما حتى يكون مأمونا مصدقا :

(الصفة الأولى) : أن في قلبه كل الحمية التي أثارها الصراع بين المسيحية المحصورة في الشمال وبين دار الإسلام الممتنعة على الاختراق ...

(الصفة الثانية) : أن في صميم قلبه كل ما تحمله قلوب خاصة الأوربيين وعامتهم وملوكهم ، وسوقتهم ، من الأحلام البهيجة والأشواق الملتهبة إلى حيازة كل ما في دار الإسلام ، من كنوز العلم والثروة والرفاهية والحضارة ... »[٧].

هكذا كان من عمل المستشرقين ، ارتياد ديار الإسلام و (معرفتها) ، و (التعريف بها) حتى يضمن للزحف الصليبي الجديد أن يسير على هدى وبصيرة .

وإذا كنا نقول هذا استنتاجا صحيحا ، من قراءة الوقائع والأحداث ، ومما تنطق به جولات الصراع الذي دار ـ ويدور ـ بين الصليبية ، وديار الإسلام . إذا كنا نقول هذا استملاء من لسان الحال ، حال التاريخ القريب والبعيد ، فقد صدقه المستشرقون أنفسهم ، وقالوه بلسان المقال ، فهذا هو المستشرق الأمريكي (روبرت بين) يقول في مقدمة كتابه (السيف المقدس) إن لدينا أسبابا قوية لدراسة العرب ، والتعرف على طريقتهم ، فقد غزَوا الدنيا كلها من قبل ، وقد يفعلونها مرة ثانية ، إن النار التي أشعلها محمد لا تزال تشتعل بقوة ، وهناك ألف سبب للاعتقاد بأنها شعلة غير قابلة للانطفاء »[٨].

---

(٦) محمود محمد شاكر ، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ٧٣ ـ ٧٤ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٨) نقلا عن محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة : ٥٩٧ .

وبهذه الصراحة أو أشد منها ـ إذا كان هناك أشد منها ـ يأتي قول الأمير (كايتاني) ذلك الأمير الإيطالي الذي « جهز على نفقته الخاصة ثلاث قوافل ، لترتاد مناطق الفتح الإسلامي ، وترسمها جغرافيا وطبوغرافيا ، وجمع كل الدوريات والأخبار الواردة عن حركة الفتح في اللغات القديمة . . واستخلص تاريخ الفتح في تسعة مجلدات ضخمة بعنوان (حوليات الإسلام) بلغ بها سنة أربعين هجرية . . قال هذا الأمير الذي استهلك كل ثروته الطائلة في هذه الأبحاث ، حتى أفلس تماما ، قال في مقدمة كتابه (حوليات الإسلام) هذه : إنه إنما يريد بهذا العمل أن يفهم سر المصيبة الإسلامية التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض ، ما يزالون حتى اليوم يؤمنون برسالة محمد ، ويدينون به نبيا ورسولا »[٩].

فهو بهذا يعلن عن هدفه بغاية الصراحة والوضوح : « أن يفهم سر المصيبة الإسلامية » أي سر الإسلام ، ومصدر قوته .

ويكتب المستشرق الألماني (باول شمتز) كتابا يتناول فيه عناصر القوة الكامنة في العالم الإسلامي ، والإسلام ، فيسمي هذا الكتاب (الإسلام قوة الغد العالمية) فلماذا كتب هذا الكتاب ، وقام بهذه الدراسة ؟ ، إنه لا يتورع أن يعلن صراحة وبدون مواربة عن هدفه ، الذي هو تبصير أوربا الغافلة عن هذه القوة التي هي « صوت نذير لأوربا ، وهتاف يجوب آفاقها ، يدعو إلى التجمع والتساند الأوربي لمواجهة هذا العملاق ، الذي بدأ يصحو ، وينفض النوم عن عينيه ، فهل يسمع أحد ؟ . . هل من مجيب ؟ » بهذه العبارة التي ختمها بذاك النداء الصارخ ، ينهي (شمتز) كتابه ، والكتاب كله تحكمه هذه الروح .

ولذلك حق للناشر الألماني أن يقول عن هذا الكتاب « إنه يوضح الخطر المتوهج الذي يمر عليه الإنسان في أوربا بكل بساطة ، وفي غير اكتراث فأصحاب الإيمان بالإسلام يقفون اليوم (١٩٣٦م قبيل الحرب العالمية الثانية) في جبهة موحدة معادية للغرب ، . . . وهذا الكتاب ، هو نداء وتحذير يجب أن يلقى الاحترام الجدي من أجل مصالح الغرب وحدها »[١٠].

---

(٩) بنت الشاطيء : تراثنا في الشرق والغرب ، محاضرات مطبوعة على الآلة الناسخة ألقيت على الدارسين بمركز تحقيق التراث القومي ونشره ، بالقاهرة عام ١٩٦٧م ـ ص ٧ ـ ١٠ .

(١٠) من مقدمة الدكتور محمد البهي للكتاب ص ١١ ، والكتاب ترجمة الدكتور /محمد عبد الغني شامة ،وصدر عن مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .

ويكرر هذا المعنى نفسه (ألبير شاميدور) في كتابه (حمراء غرناطة) فيقول بعد أن تحدث عن عظمة الآثار الإسلامية في غرناطة : « . . إن هذا العربي الذكي الشجاع الذي استطاع أن يجمع علم العالم في مائة عام ، كما استطاع أن يفتح نصف العالم أيضا في مائة عام ، قد ترك لنا في (حمراء غرناطة) آثار علمه وفنه .

إن هذا العربي الذي نام نوما عميقا مئات السنين ، قد استيقظ وأخذ ينادي العالم : ها أنذا أعود إلى الحياة . . فمن يدري قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة بالعرب ، فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية » .

ثم يقول : « لست أدعي النبوة ، لكن الأمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة ، لا تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها » .

ثم ينادي صارخا : « أبيدوا أشباح العرب في (الحمراء) . . أبيدوها قبل أن تبعث !! ثم يبالغ في الإنذار والتخويف ، فيقول : « هيهات أن نستطيع إلى ذلك سبيلا »[11]!!

هكذا وبكل وضوح يكشف القومُ عن أهدافهم ، ولكن جماعة منا ـ عفا الله عنهم ـ مازالوا حتى يومنا هذا ، بل لحظتنا هذه ، يصفون هذه الأعمال بأنها (علمية) (أكاديمية) (فكرية) . . الخ ويدبجون في الثناء عليها المقالات والكتب ويلقِّنون أجيالنا الناشئة ذلك .

ولعل ما يفصل بيننا وبين قومنا في هذه القضية هو قول (روجيه جارودي) ذلك الفيلسوف ، الذي كان زعيم المذهب الوجودي ومفسر طلاسم سارتر ضمير العصر على حد قول (فلاسفتنا) (العظام) ـ والذي كان مرشحا لزعامة الحزب الشيوعي قال : « لم يكن الاستشراق حركة نزيهة منذ البداية ، إذ كان الهدف منه تنفيذ مشروع يرمي إلى إدخال المسلمين في النصرانية[12] .

حـــول تطـــوّر الدراســـات الاســـتشــراقيـــة :

بعض بني جلدتنا حينما نضع أمامهم هذه النصوص الناطقة بأهداف المستشرقين الشاهدة

---

(١١) من كتابنا : أبو القاسم الزهراوي : ص ١١٠ وهذا من إحدى الدوريات المنشورة سنة ١٩٦٢م عام تأليف الكتاب وأعتذر عن عدم توثيقها كما ينبغي ، فقد ضاعت هذه الأصول ، مع غيرها من الكتب والدوريات ، من تحت أيدينا . والله المستعان . وأكون شاكرا للكرام القارئين ، لودلني أحدهم على هذا المصدر المفقود .

(١٢) انظر كتابه : مبشرات الإسلام ، عن مجلة الأمة الشهرية عدد ٢٤ ـ ص ٢٣ .

على بعدهم عن العلم والبحث ، ومجافاتهم روح (الأكاديمية) والمنهج - يقول هذا البعض : « ما لكم تتشبثون بهذه العبارات ، وتقفون عند هذه الأخبار ولا تتجاوزونها ؟؟ إن ذلك كان في القرن التاسع عشر ، وقبل القرن التاسع عشر ، كان في أيام الاستعمار وطغيان الاستعمار ، كان في أيام الصراع المحتدم بين الشرق والغرب ، أما منذ مطلع القرن العشرين ، فقد تطورت الدراسات الاستشراقية ، وصارت (علمية) (منهجية) تبحث عن العلم المجرد ، لذات العلم ، والمعرفة ، وانتهى عهد التهجم على الإسلام : نبيّه ، وقرآنه ، ورجاله ، وعقائده ، وحضارته ، لقد صارت الدراسات الاستشراقية آية في النزاهة ، وقدوة في الالتزام بالمنهج العلمي ، والإخلاص للبحث والتجرد للحقيقة !!! . . . كذا يقولون !! .

وقد يكون هذا الكلام صحيحا في بعضه ، أعني أن أبحاث الاستشراق خلت من السب والشتم ، والتقبيح ، والتشنيع على الإسلام ، وأهله ، فذلك صحيح في جملته ، ولكن ذلك لم يكن بسبب التزام الاستشراق بالمنهج العلمي وقواعد البحث الأكاديمي ، ولكن لسبب آخر ، سنعرض له فيما بعد ، أما المنهج العلمي الصحيح ، والتجرد للبحث وخدمة الحقيقة فما زال - وسيظل - الاستشراق بعيدا عنها ، لأسباب كثيرة بعضها راجع لطبيعة الاستشراق ، وهدفه ، ونشأته ، وبعضُها راجعٌ لعجزٍ طبعي فطري ، في هؤلاء الأعاجم ، يحول بينهم وبين امتلاك وسائل البحث في العلوم الإسلامية ، وأدواته .

ونستطيع ببساطة ويسر ، أن نُحيل هؤلاء ، إلى ما عرضناه من شهادات المستشرقين وأقوالهم بألسنتهم ، وهم من المعاصرين ، في قرننا العشرين هذا ، بل منهم من عاش إلى قريب من أيامنا هذه .

وإن لم يكف ما تقدم ، فنضع أمام أعينهم ، ما كتبه الدكتور (جلوور) في كتابه : تقدم التبشير العالمي ، الذي نشره سنة ١٩٦٠م ، قال : « إن سيف محمد والقرآن أشد عدو ، وأكبر معاند للحضارة والحرية والحق ، ومن أخطر العوامل الهدامة التي اطلع عليها العالم إلى الآن » ، وقال أيضا : « القرآن خليط عجيب من الحقائق والخرافات ، ومن الشرائع والأساطير ، كما هو مزيج غريب للأغلاط التاريخية ، والأوهام الفاسدة ، وفوق ذلك هو غامض جدا ، لا يمكن أن يفهمه أحد إلا بتفسير خاص له .

ثم ينتقد شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا : « . . كان محمد (صلى الله عليه وسلم) ، حاكما مطلقا ، وكان يعتقد أن من حق الملك على الشعب ، أن يتبع هواه ويعمل ما يشاء ، وكان مجبولا على هذه الفكرة ، فقد كان عازما على أن يقطع عنق كل من لا يوافقه

في هواه ، أما جيشه العربي ، فكان يتعطش للتهديد والتغلب ، وقد أرشدهم رسولهم أن يقتلوا كل من يرفض اتباعهم ، ويبعد عن طريقهم »[١٣] .

ولعل تعبير المستشرق (ليوبولد فايس) الذي أسلم وتسمى باسم (محمد أسد) عن أزمة الأوربي تجاه الإسلام ، وأزمة المستشرق بصفة خاصة ـ هو أوضح تعبير ، وأصدقه حيث جاء من واقع الخبرة ، والممارسة العريضة العميقة لكتابات المستشرقين ، قال : « . . . . **لا تجد موقف الأوربي تجاه الإسلام ، موقف كره في غير مبالاة فحسب ، كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات ، بل هو كره عميق الجذور ، يقوم في الأكثر على صدود من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقليا فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضا بصبغة عاطفية قوية . . . إن الأوربي لا يحتفظ تجاه الإسلام بموقف عقلي متزن ، مبني على التفكير ، بل حالما يتجه إلى الإسلام يختل التوازن ، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب . حتى إن أبرز المستشرقين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب ، غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام .**

ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام ، لا يمكن أن يعالج على أنه موضوعٌ بحث في البحث العلمي ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته ، إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام ، الذي يحاول إثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع ، فهو مع اقتناعه شخصيا بإجرام موكله ، لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيء من الفتور ، اعتبارَ الأسباب المخففة .

ثم يقول بعد ذلك مبينا أن الإسلام وحده ، دون الثقافات الأجنبية المختلفة ، وقفت منه الدراسات الغربية هذا الموقف : « . . **أما فيما يتعلق بالإسلام ، فإن الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية . وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوربة والعالم الإسلامي ، غير معقود فوقه بجسر ، ثم أصبح احتقار الإسلام جزءًا أساسيا من التفكير الأوربي .**

والواقع أن المستشرقين في الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الإسلامية ، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها عن تعاليم الإسلام وتاريخه ، مدبرة على أساس يضمن التأثير في موقف الأوروبيين من (الوثنيين) غير أن هذا الالتواء العقلي ، قد

---

(١٣) عن عماد الدين خليل : تطور الموقف الغربي من السيرة ـ ضمن (مناهج المستشرقين ١/١٢٨ نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج ، بالاشتراك مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ الرياض ـ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م .

استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذا عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها . **أما تحامل المستشرقين على الإسلام ، فغريزة موروثة وخاصة طبيعية ، تقوم على المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية ، بكل ما لها من ذيول في عقول الأوربيين الأولين »**[١٤].

هكذا أصبح تحامل المستشرقين على الإسلام غريزة موروثة ، وخاصة طبيعية ، تزول المؤثرات ، والدوافع ، والأسباب ، ولا تزول هذه الغريزة ، فكيف يقال : إن الدراسات الاستشراقية قد تطورت ؟؟

لمـــن يكـــتب المســـتشـــرقـــون ؟ :

لم نكن بحاجة إلى هذا العناء ، وتناول هذا الموضوع - موضوع المستشرقين وأعمال المستشرقين - أصلا ، لو أن بني قومنا عرفوا لمن يكتب المستشرقون ، لو أن المثقف المسلم ، وصاحب القلم المسلم ، ورجل الفكر المسلم ، عرفوا لمن يكتب المستشرقون ، لووقفوا من هذه الأعمال الاستشراقية الموقفَ الصحيح ، فتركوها لمن كتبت له .

لم يكن المستشرقون - في تقديري - يتوجهون بهذه الأعمال ، وبهذه البحوث كلِّها إلا ألى المثقف الغربي ، يخافون عليه ، ويحصنونه ، من أن يقع في إسار الإسلام ، دينا وفكرا وحضارة ، كان الاستشراق - بهذه الأعمال - يريد أن يضرب ستارا كثيفا ، من التشويش ، والتشويه ، بين المثقف الأوربي وبين الإسلام .

كانت الصليبية الأوربية - والاستشراق لسانها - تخشى أن يملأ نور الإسلام ، قلوبَ المسيحيين الأوروبيين ، كما ملأ قلوب المسيحيين ، في الشام ، وفي مصر ، وفي الشمال الإفريقي ، وفي الأندلس ، فدخل المسيحيون في كل هذه الأصقاع (طائعين مختارين) في نور الإسلام ، وتكلموا لغة القرآن ، وحملوا رايته ، وجاهدوا في سبيله ، وقاتلوا أعداءه .

كانت المسيحية الأوربية في فزع فازع ، وكان أحبار الكنيسة ، ورهبانها يخشون أن يصل نور الإسلام إلى أوربا ، فيبدد ظلام الكنيسة ، ويحطم سلطانها ، ويحرم رجالَها غنائمَهم ، ومن هنا عمد المستشرقون - وهم لسان الكنيسة - إلى هاتيك الدراسات ، ليجعلوها عصابة على عيون أبناء الكنيسة ورعاياها . . كما أوضحنا ذلك في صفحات سابقة .

ومن هنا نجدهم في كتاباتهم الأولى ، يكتفون بالسب والشتم ، في الإسلام وفي رسول

---

(١٤) محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق : ٥٢ - ٦٦ ، الطبعة التاسعة .

الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ، وتنزه عما قالوا ـ واختلاق الأكاذيب عن المسلمين ، ونظام حياتهم ومجتمعاتهم ، ثم تطورت هذه الدراسات رويدا رويدا ، فبعد أن كانت في أول أمرها فجة ساذجة ، صارت تتجه إلى الترتيب والتنسيق والاستدلال ، وأخذت في التعمق ، وارتداء ثوب البحث ، وطيلسان الأكاديمية ، ولكنها ظلت ، وفية لهدفها الأول ، لم تنسه ولم تتخل عنه ، وهو تحصين الإنسان الأوربي ، ضد الإسلام .

ويظن بعض من أبناء أمتي حين يرون هذا التغيّر ، أن هذا تطور في الدراسات الاستشراقية ، وتغيير للأهداف ، وتنازل عن الأحقاد ، وأن القوم ثابوا إلى الإنصاف ، فكفوا عن السب ، والشتم ، والتقبيح ، ومالوا إلى العلمية ، والتزموا بالموضوعية .

ولكن الواقع أنه ليس في الأمر ، موضوعية ، ولا منهجية ، ولا اعتدال ، ولا استقامة وإنما كان هذا التغير ، أو التطور في الأساليب فقط ، وكان تغيير الأساليب ضرورة أملتها الظروف وواقع الحال ، كان لا بد من تغيير الأساليب لتتلاءم وتتواءم مع المواطن الأوربي المسيحي نفسه ـ المخاطب أصلا بالدراسات الاستشراقية ـ فحيثما كان العصر عصر أمّية وجهالة ، وهمجية ، كان يكفيهم أن يكتبوا لهم سبا وشتما ، في الإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، وفي المسلمين ، حتى يقبحوه ويشوهوه ، في أعينهم ، وينفروهم منه . أما مع التطور والاستنارة ، ومعرفة هؤلاء الأوربيين بالمسلمين والإسلام ، نتيجة للاحتكاك في القتال ، والتجارة والانتقال ، فكان لا بد من أن يغير هؤلاء أساليبهم ، حتى تنطلي على عقول الأجيال الجديدة ، وكان تغيير الأساليب يتلاءم ، ويتواءم مع درجة معرفة هؤلاء عن الإسلام والمسلمين .

كان هذا هو تفسيرنا للتطور (المزعوم) للاستشراق ، قلناه من واقع الاستقراء لأحداث التاريخ ، ولأدوار الصراع المرير ـ الذي لم ينقطع بين الصليبية والإسلام ومن واقع ما رأيناه ، في أبحاثهم ، من التواء بالمنهج ، وطمس للحقائق .

ثم بعد ذلك قرأناه صريحا ، مكشوفا في كلام المستشرق الانجليزي المعاصر « مونتجومري وات » وهو يتحدث عن (مآخذ أخلاقية مزعومة) ادعاها الغربيون في كتاباتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : « ليس بين كبار رجال العالم رجل كثر شانئوه كمحمد (صلى الله عليه وسلم) ومن الصعب[15] فهم السبب الذي دعا إلى ذلك . فقد كان الإسلام خلال

---

(١٥) كذا قال : وكان الأولى أن يقول : « ومن السهل » فإن ما ذكره في هذه الفقرات هو التفسير الذي لا يحتاج إلى عناء في إدراكه .

قرون عدة العدو الأكبر للمسيحية[16] ، ولم تكن المسيحية في الحقيقة على اتصال مباشر بأية دولة أخرى منظمة توازي الإسلام في القوة ، فلقد هوجمت الامبراطورية البيزنطية ، بعد أن فقدت مقاطعاتها في سورية ومصر ، وآسيا الصغرى ، بينما كانت أوربا الغربية مهددة في أسبانيا وصقلية .

وأخذت الدعاية الكبرى في العصور الوسطى -حتى قبل أن توحِّد الحربُ الصليبية اهتمامَ المسيحيين حول طرد العرب من الأرض المقدسة -تعمل على إقرار فكرة « العدو الأكبر » في الأذهان ، ولو كانت تلك الدعاية خالية من كل موضوعية .

وأصبح محمد « أمير الظلمات » حتى إذا ما حل القرن الحادي عشر ، كان للأفكار الخرافية المتعلقة بالإسلام والمسلمين ، والقائمة في أذهان الصليبيين تأثير يؤسف له .

فقد أُنذر الصليبيون بأن ينتظروا أسوأ الأمور من الأعداء ، ولما وجدوا بين هؤلاء الأعداء كثيرا من المحاربين الفرسان ، شعروا بالريبة من السلطات الدينية المسيحية .

ولهذا حاول بطرس الراهب أن يعالج هذا الوضع بإذاعة معلومات أصدق عن محمد والديانة التي يدعو إليها .

وقد حدث تطور كبير في هذا السبيل ، ولا سيما من قرنين من الزمن ، وإن ظل كثير من الأوهام عالقا في الأذهان[17] .

فها هو يكشف عن سر هذا (التطور) « وجدوا (أي الصليبيين) بين هؤلاء الأعداء (أي المسلمين) كثيرا من المحاربين الفرسان (أي النبلاء والأبطال) فشعروا بالريبة من السلطات الدينية المسيحية » ، هكذا اطلع مسيحيو أوربا أثناء الحرب الصليبية ، على صورة للمسلمين ، غير الصورة التي صورها لهم رهبانهم (المستشرقون) فحاول بطرس الراهب (من قواد الحروب الصليبية ومشعلي أوارها) أن يعالج هذا الوضع ، (الشعور بالريبة من السلطات الدينية المسيحية) بإذاعة معلومات أصدق عن محمد (صلى الله عليه وسلم) والديانة التي يدعو إليها » .

وبعد ذلك ، ومع ذلك ، نجد من (الأساتذة الكبار) من يبشر فينا بتطور الدراسات الاستشراقية ، والتزامها بالمنهج ، وأصول البحث ، وتجردها ونزاهتها .

---

(١٦) لم يكن الإسلام -ولن يكون -عدوا للمسيحية ، ولكنه عدو للروح الصليبية ، روح الانتقام التي لم يخبُ ضرامها في نفوس الصليبيين ، برغم ما أبداه الإسلام دائما من تسامح .

(١٧) مونتجومري وات : محمد في المدينة : ١٩٣ - ١٩٤ .

المستشرقون لا يكتبون لنا :

قلنا : إن الاستشراق بأبحاثه وأعماله (كلها) موجه إلى المواطن الأوربي ، نعم للمواطن الأوربي ، فما كان المستشرقون يطمحون ، بل يحلمون أن تكون أعمالهم هذه توجيها وتعليما للمسلمين ، بل مرجعا يعتمدون عليه ، وموئلا يلوذون به ، ومصدرا يرتوون منه ، ومنبعا ينهلون منه ، في دراساتهم ، وأبحاثهم ، وكتبهم ، فتقوم صروح الفكر والثقافة على أعمال المستشرقين ، فتكون على شفا جرف هارٍ ، ينهار بنا في وهدة السقوط والضياع ، والاستلاب الحضاري .

لم يكن يطمح ولا يحلم المستشرقون بشيء من هذا ، ولا دون هذا ، فلم تشهد الدنيا قط في تاريخها ، رجلا غريبا عن الأمة ـ أية أمة ـ صار مسموع الكلمة في أدب هذه الأمة ، وتاريخها وحياة مجتمعها ، بل ودينها .

لم تشهد الدنيا في تاريخها ما شهدته أمتنا « أرأيتم قط رجلا واحدا من غير الإنجليز أو الألمان مثلا ، مهما بلغ من العلم والمعرفة ، كان مسموع الكلمة في آداب اللغة الإنجليزية ، وخصائص لغتها ، وفي تاريخ الأمة الإنجليزية ، وفي حياة المجتمع الإنجليزي ، يدين له علماء الإنجليز بالطاعة والتسليم ؟ .

أليس غريبا أن يكون غير الممكن ممكنا ، في ثقافتنا نحن وحدها ، دون سائر ثقافات البشر ، قديمها وحديثها ؟ غريب عجيب لا محالة »[١٨] .

ولكنه للأسف كان وحدث في ثقافتنا وحدها ، حتى وجدنا عالما جليلا يقتعد مقعد الأستاذية ، في حصن العربية والإسلام ، : الأزهر ، في كلية الشريعة ، يفتتح درسه الأول لطلاب قسم الدراسات العليا قائلا : « إني سأدرس لكم تاريخ التشريع الإسلامي ، ولكن على طريقة علمية ، لا عهد للأزهر بها ، وإني أعترف لكم بأني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاما ، فلم أفهم الإسلام ، ولكني فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانيا » . .[١٩] . ثم ابتدأ درسه عن تاريخ السنة النبوية ، ترجمة حرفية عن كتاب ضخم بين يديه ، هو كتاب

---

(١٨) أستاذنا محمود محمد شاكر ، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ١٠٦ فقرة ١٩ .

(١٩) الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ، الاستشراق والمستشرقون : ٩ ـ ١٠ والقائل هو الشيخ الدكتور علي حسن عبد القادر . رحمه الله .

جولد تسيهر (دراسات إسلامية) وينقل عباراته ، ويتبناها على أنها حقائق علمية »[٢٠].
(السابق نفسه : ١٠) .

أرأيت ؟ صار غير الممكن في أمم الأرض كلها ، وفي ثقافات الدنيا كلها ممكنا ، واقعا في أمتنا وحدها ، وفي ثقافتنا وحدها !!!

لقد نبغ من أبناء أمتنا نابغون ، في اليونانيات ، واللاتينيات ، والفرنسية والإنجليزية ، أترى لو أن أحدهم كتب في آداب هذه اللغات ، أو في شؤون مجتمعها أو في تاريخها ، أو عقائدها ، يُصبح مرجعا ، ومصدرا لأهلها ، أترى لو أن أستاذ الجيل ، أو عميد الأدب[٢١] العربي ، كتبا في تاريخ اليونان ، وفي آداب فرنسا ، يصبح لكتابتهما مكان بين المصادر ، والمراجع ، وتجد من يقول برأيهما ، ويعتقده ، ويتبناه ؟؟

« لكنها صروف الدهر ، التي ترفع قوما ، وتخفض أخرين ، قد أنزلت بنا ، وبلغتنا وبأدبنا ، ما يُبيح لمثل هؤلاء المستشرقين أن يتكلموا في شعرنا وأدبنا ، وأن يجدوا فينا من يستمع إليهم ، وأن يجدوا أيضا من يختارهم أعضاء في بعض مجامع اللغة العربية[٢٢] .

---

(٢٠) رجع الشيخ على حسن عبد القادر عن رأيه هذا في المستشرقين ، راجع القصة كاملة في مصدرها المشار إليه لتعرف تفاصيلها ، وأسباب الرجوع ، وأقرأ كتابه (نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي) لتعرف مدى الرجوع عن تبني آراء المستشرقين ودرجته .

(٢١) هما على الترتيب أحمد لطفي السيد ، وطه حسين ، وهما من أعمدة التغريب والوفاء والولاء للثقافة الغربية .

(٢٢) من كلام أستاذنا محمود شاكر ـ مد الله في عمره ـ عندما سأله العلامة أحمد تيمور باشا عن رأيه في بحث مرجليوث عن نشأة الشعر العربي .

كان ذلك في صيف ١٩٢٥م ، فقد أعطاه تيمور باشا عدد يوليه سنة ١٩٢٥م من مجلة (الجمعة الملكية الآسيوية) مشيرا إلى مقال (مرجليوث) قائلا : اقرأ هذا فلما لقيه ثانية ، وسأله عن رأيه فيما قرأ قائلا : ماذا رأيت ؟ قال شيخنا محمود شاكر ، وكان بعدُ فتى ناشئا ، على أبواب الجامعة ، قال : رأيت أعجميا باردا شديد البرودة ، لا يستحي كعادته ، (فابتسم تيمور باشا وتلألأت عيناه) . فقال الفتى : محمود شاكر : أنا بلاشك أعرف من الإنجليزية فوق ما يعرفه هذا الأعجم من العربية أضعافا مضاعفة ، بل فوق ما يمكن أن يعرفه منها إلى أن يبلغ أرذل العمر ، وأستطيع أن أتلعب بنشأة الشعر الإنجليزي ، منذ (شوسر) إلى يومنا هذا تلعبا ، هو أفضل في العقل ، من كل ما يدخل في طاقته أن يكتبه عن الشعر العربي ، ولكن ليس عندي من وقاحة التهجم وصفاقه الوجه ، ما يسوّل لي أن أخط حرفا واحدا عن نشأة الشعر الإنجليزي ، ولكنها صروف الدهر . . » . . =

فأس البلاء في قضية الاستشراق والمستشرقين ، هو ذلك الوضع المقلوب العجيب الغريب ، أعني اعتماد بني جلدتنا على (أبحاثهم) و (علومهم) ، التي كتبت في الأصل للمثقف الأوربي ، لا للعلماء العرب والمسلمين .

ولولا أن ذلك الوضع المقلوب كائن عندنا ، لما كان للاستشراق قضية . ولما اشتغل بأمر المستشرقين صاحب قلم ، والله المستعان على كل بلية .

وأعجب من كل ما تقدم وأغرب ، أعني أعجب من اعتماد أبناء أمتنا على كتابات المستشرقين ، في دراساتهم ، وأبحاثهم ، أعجب من هذا اتخاذهم أساتذة ، نجلس منهم مجلس التلمذة ، ونأخذ عنهم العلم ، فيما يختص بتاريخنا ، ومجتمعاتنا ، بل وديننا ولغتنا ، ولقد عبر عن هذه المفارقة العجيبة الشاذة ، العلامة أبو الأعلى المودودي بقوله : « من تقلبات الدهر وعجائب أمره ، أنه قد مر على المسيحيين في أوربا حين من الدهر كانوا يشدون فيه الرحال إلى الأندلس ، ليتعلموا كتابهم المقدس ـ التوراة ـ من علماء المسلمين . أما الآن ، فقد انقلب الأمر رأسا على عقب ، حيث أصبح المسلمون ـ وا أسفاه ـ يرجعون إلى أهل الغرب (أوربا وأمريكا) يسألونهم : ما هو الإسلام ، وما هو تاريخه ، وما هي حضارته ؟ ليس هذا فقط ، بل قد أصبحوا يتعلمون اللغة العربية منهم ، ويستوردونهم لتدريس التاريخ الإسلامي . . وكل ما يكتبونه عن الإسلام والمسلمين لا يجعلونه مادة للدراسة في كلياتهم وجامعاتهم فقط ، ولكن يؤمنون به إيمانا راسخا مع أنهم ـ أعني الغرب ـ قوم لا يسمحون لأحد إذا لم يكن من أتباع دينهم بأن يتدخل فيما يتعلق ، بدينهم وتاريخهم ، ولا في أتفه الأمور(٢٣) .

المنهـج عنـد المسـتشـرقـين :

نحن هنا لا نحاول أن نعرض لأعمال المستشرقين بنقدٍ أو تفنيد ، أو مجرد تقييم ، وإنما هدفنا الوصول إلى ملامح وسمات المنهج في كتاباتهم ، لنرى إلى أي حد تلتزم كتاباتهم بقواعد المنهج العلمي وأسسه ، وإلى أي حد يمكن بالتالي أن تسمى كتاباتهم بحوثا أو علما .

= اقرأ النص كاملا ، مع موقف شيخنا من قضية الشعر الجاهلي ، وطه حسين ، وطرف من رأيه في الاستشراق والمستشرقين ، في المقدمة التي كتبها لكتابه المتنبي تحت عنوان (لمحة من فساد حياتنا الأدبية من ص ٩ ـ ٤٥ ـ طبعة ١٩٧٧م) .

(٢٣) العلامة أبو الأعلى المودودي ـ الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة : ٢٧١ ـ أخذا من محمد فتح الله الزيادي ـ ظاهرة انتشار الإسلام . وموقف بعض المستشرقين منها : ٩٨ ـ ٩٩ .

وسنحاول أن نستخرج هذه الملامح والسمات لمناهجهم ، من واقع أعمالهم ، وكتاباتهم ، التزاما بالعدل والإنصاف ، وبقواعد المنهج أيضا .

ومن هنا سيكون عرضنا لبعض الأمثلة والنماذج من كتاباتهم ، لا بقصد مناقشتها ، أو ردّها ، أو تفنيدها ، وإنما فقط للاستدلال بها ، على مدى منهجية كتابات القوم ، واحترامهم لأصول البحث وقواعده .

ونستطيع أن نوجز هذه الملامح والسمات المنهجية ، التي رأيناها ، وإن شئت قلت : المآخذ المنهجية ، على النحو الآتي :

أ ـ الخضوع للأهواء وعدم التجرد للبحث :

شرط المنهج الأول ، وأساسه ، التجرد من الأهواء ، وعدم الوقوع تحت سلطانها ، فلا يميل الهوى بالباحث لإثبات ما يوافق هواه ، ونفي ما عداه ، فما بالك بمن يحدد الغرض أولا ، والنتيجة مسبقا ، ثم يبدأ في البحث عما يؤيدها ، والتنقيب عما يثبتها ، فهذا ليس علما ، وليس بحثا ، مهما كانت صورته ، ومهما كان شكله ، وهذا هو ما يعمله المستشرقون ، فهم « يعنيون لهم غاية ، ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقومون لها بجمع معلومات ـ من كل رطب ويابس ، ليس لها علاقة بالموضوع ، سواء من كتب الديانة والتاريخ ، أو الأدب أو الشعر ، أو الرواية ، والقصص ، أو المجون والفكاهة ، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها ، ويقدمونها بعد التمويه بكل جراءة ، ويبنون عليها نظرية ، لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم ».(٢٤)

وما ذكرناه في هذا البحث آنفا عن أهداف المستشرقين وغاياتهم ، يشير إلى هذه الآفة ، فالمستشرق يبدأ بحثه وأمامه غاية حددها ، ونتيجة وصل إليها مقدما ، ثم يحاول أن يثبتها بعد ذلك ، ومن هنا يكون دأبه ، واستقصاؤه الذي يأخذ بأبصار البعض ، وهو في الواقع يدأب ، ويشقى ويكد ، لينحّي ما يهدم فكرته ويكذب رأيه ، ويُخفي ويطمس ويتجاهل كلَّ ما يسوقه إلى نتيجة غير التي حددها سلفا ، ومن هنا تأتي أبحاثهم عليها مسحة العناء والاستقصاء ، ولكنه عناء الالتواء ، واستقصاء من يجمع من لا شيء شيئا ، ويصنع من الهباء بناء ، ويبني من الغبار صرحا .

يقول أستاذنا محمود شاكر ، عن هذا الخطر ، والخلل المنهجي :

---

(٢٤) العلامة أبو الحسن الندوي ، الإسلام والمستشرقون : ١٩ ، المجمع الإسلامي العلمي « ندوة العلماء » لكنو ، الهند ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

« وأما الأهواء ، فهي الداء المبير والشر المستطير ، والفساد الأكبر ، إن هو ألم بأي عمل إلمامة خفيفة الدبيب ، بله الوطء المتثاقل ، أحاله إلى عمل مستقذر منبوذ كريه ، حتى ولو جاءك هذا العمل في أحسن ثيابه ، وحليه وعطوره ، وأتمها زينة ، من دقة استيعاب وتمحيص ، ومهارة ، وحذق وذكاء »(٢٥).

هذا الداء المبير ، والخطر الوبيل ، حذر منه علماؤنا الأقدمون منذ أكثر من ألف عام ، حين وضعوا قواعد المنهج ، وحددوا أركانه وشروطه فتردد في كتبهم ونبهوا عليه في كثير من مؤلفاتهم ، وخصوا هذه القواعد بكتب ورسائل خاصة ، فمن قبل ألف عام قرأت الدنيا للحسن بن الهيثم المتوفي سنة ٤٣٠هـ - ١٠٣٨م ، فيما وضعه من قواعد المنهج قولَه في كتابه (المناظر) : « . . ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه **استعمال العدل ، لا اتباع الهوى ، ونتحرى ، في سائر ما نميزه ، وننتقده طلب الحق ، لا الميل مع الآراء ، فلعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي به يثلج(٢٦) الصدر ، ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة ، التي يزول معها الخلاف ، وينحسم بها مواد الشبهات** »(٢٧).

هكذا ، استعمال العدل ، والبعد عن الهوى ، وطلب الحق ، وعدم الميل مع الآراء شرطٌ للوصول إلى اليقين والحقيقة !! فهل كان المستشرقون يبغون اليقين ويريدون الحقيقة ؟؟

ب - عجز المستشرق عن تمثل الثقافة واللغة :

إذا كان من شروط المنهج البراءة من الأهواء ، كما ذكرنا آنفا ، فإن من شروطه أيضا إدراك اللغة والإحاطة بأسرارها ، أسرار اللغة التي يبحث الباحث في آدابها وعلومها ، وفنونها ، وكذلك إدراك (الثقافة) والإحاطة بسرها ، (ثقافة) الأمة التي يريد أن يبحث في تاريخها ، وعقائدها ، وعمرانها وحضارتها ، وعقائدها ودينها .

وذلك لازم للمستشرق وغير المستشرق « هذه الشروط لا يختلف في شأنها أحد قط في كل ثقافة ، وفي كل أمة ، فإذا كان لا يعد كاتبا أو باحثا أو عالما من أبناء اللغة ، وأبناء الثقافة

---

(٢٥) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ٩٨ ، ٩٩ .

(٢٦) ثلج الصدر ، يتردد هذا في مؤلفات أئمتنا في القرون الأولى ، ويعنون به اليقين ، وكثيرا ما يعطفون عليها لفظا آخر أوضح دلالة على المعنى المراد فيقولون : « ثلج الصدر ، وبرد اليقين » .

(٢٧) الدكتور مصطفى نظيف ، الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية ، ٢٩ - ٣٧ ، نقلا عن الدكتور على سامي النشار- مناهج البحث عند مفكري الإسلام : ٣٧٣ - ٣٧٤ ، الطبعة الثانية .

أنفسهم ، إلا من اجتمعت له هذه الشروط ، فإذا عري منها لم يكن أهلا للنزول في ميدان (المنهج) فإذا فعل ، فهو متكلم لا أكثر ، ثم لا يلتفت إلى قوله ، ولا يعتد به عند أهل البحث والعلم والكتابة . .

والمستشرق فتى أعجمي ، ناشىء في لسان أمته وتعليم بلاده ، ومغروس في آدابها وثقافتها . . . ثم يشدو طرفا من علوم العربية وآدابها ، يأخذها من أعجمي مثله ، ثم يخرج على الناس بعد ذلك (مستشرقا) ، يُفتي في اللسان العربي ، والتاريخ العربي ، . . . غاية ما يمكن أن يحوزه (مستشرق) في عشرين أو ثلاثين سنة . . أن يكون عارفا معرفةً مّا بهذه (اللغة) وأحسن أحواله عندئذ أن يكون بمنزلة طالب عربي ، في الرابعة عشرة من عمره ، بل هو أقل منه على الأرجح ، أي هو في طبقة العوام ، الذين لا يعتد بقولهم أحد في ميدان (المنهج) . . على أن اللغة نفسها هي وعاء (الثقافة) فهما متداخلان ، فمحال أن يكون محيطا أيضا بثقافتها ، إحاطة تؤهله للتمكن من (اللغة) ، فمن أين يكون (المستشرق) مؤهلا لنزول هذا الميدان ؟ . . .

وإذا كان أمر (اللغة) شديدا لا يسمح بدخول المستشرق تحت هذا الشرط اللازم للقلة التي تنزل ميدان (المنهج) و (ما قبل المنهج) - فإن شرط (الثقافة) أشد وأعتى ، لأن الثقافة سر من الأسرار الملثمة في كل أمة من الأمم ، وفي كل جيل من البشر ، وهي في أصلها الراسخ البعيد الغور ، معارف كثيرة لا تحصى متنوعة أبلغ التنوع ، لا يكاد يحاط بها ، مطلوبة في كل مجتمع إنساني ، للإيمان بها أولا من طريق العقل والقلب ، ثم للعمل بها ، حتى تذوب في بنيان الإنسان ، وتجري منه مجرى الدم ، لا يكاد يحس به ، ثم للانتماء إليها بعقله وقلبه ، انتماء يحفظه ويحفظها من التفكك والانهيار . وهذه القيود الثلاثة : (الإيمان) و (العمل) و (الانتماء) هي أعمدة (الثقافة) وأركانها ، التي لا يكون لها وجود ظاهر محقق إلا بها ، وإلا انتقض بنيان (الثقافة) وصارت مجرد معلومات ومعارف ، وأقوال مطروحة في الطريق ، متفككة لا يجمع بينها جامع ، ولا يقوم لها تماسك ، ولا ترابط ، ولا تشابك . .

وبديهي ، بل هو فوق البديهي ، أن شرط (الثقافة) بقيوده الثلاثة ، ممتنع على (المستشرق) كل الامتناع ، بل هو أدخل في باب الاستحالة من اجتماع الماء والنار في إناء واحد ، كما يقول أبو الحسن التهامي الشاعر :

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار

وذلك لأن (الثقافة) و (اللغة) متداخلتان تداخلا لا انفكاك له ، ويترافدان

ويتلاقحان بأسلوب خفي غامض كثير المداخل والمخارج والمسارب ، ويمتزجان امتزاجا واحدا غير قابل للفصل ، في كل جيل من البشر ، وفي كل أمة من الأمم .. فأنى للمستشرق أن يحوز ما لا يحوزه إلا من ولد في بحبوبة اللغة وثقافتها منذ كان في المهد صبيا .... »[٢٨].

وهذا كلام مبين غاية الإبانة ، واضح تمام الوضوح ، لا تحتاج معه إلى دليل ، ومع ذلك أسوق لك من كلام أحد المستشرقين وكبار دهاقينهم ما يؤكد هذا .

كتب شيخ المستشرقين الروس ، وأقدرهم بإطلاق (كراتشوفسكى) إلى شقيقته يقول لها : « إن اللغة العربية تزداد صعوبة ، كلما ازداد المرء دراسة لها » - ارجع إلى المقدمة التي كتبتها زوجته لكتابه (مع المخطوطات العربية) ترجمة الدكتور محمد منير مرسي - قلت : ما باللغة العربية من صعوبة !! وكيف تزداد صعوبتها مع الأيام ؟ وكلما ازداد دراسة لها ؟؟ لكنه العجز الفطري والعجمة الموروثة ، فأني يهرب منها (كراتشوفسكي) وأضرابه .

وإن كنتَ بعدُ في شك من أمر عجز المستشرق عن استكناه سر اللغة ، وإدراك كنه الثقافة ، فسأضع بين يديك نماذج لما وقعوا فيه من أوهام غليظة[٢٩] نتيجة لهذا العجز المهين ، فمنها : « شرح كارترمير ، (الأحداث) بالغوغاء ، وتفسير كازانوفا ، لفظ (أمي) بشعبي ، ومن ذلك ما وقع فيه المستشرق الألماني (براجستراسر) ، في تحقيق كتاب مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه ، حيث صحف كلمة أبي عمرو بن العلاء : « فقد تربع في لحنه » وجعلها : « فقد تربع في الجنة ، مع أن المقام مقام ذم »[٣٠].

وإذا كانت هذه الأخطاء لا يترتب عليها كبير خلل في المعنى أو قضايا علمية فهناك ما يترتب عليه فساد في المعني ، وأحكام شرعية ، فمن ذلك ما قاله (م . وات) من تفسير الغض من البصر بأنه التواضع ، حيث قال : « وقد نزلت آيات أخرى تدعو المؤمنات إلى التواضع » وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها »[سورة النور : ٣١][٣١].

---

(٢٨) أستاذنا محمود شاكر - رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ٩٩ - ١٠٤ باختصار وتصرف يسير .

(٢٩) هذا التعبير مستعار من أخي الدكتور محمود الطناحي ، في كتابه : مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م وهو كتاب جيد ، أنقذ تاريخا غاليا من الضياع .

(٣٠) د . محمود الطناحي ، مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي : ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٣١) (محمد في المدينة : ٤٣٦) .

هكذا يرى أن هذه الآية تدعو إلى التواضع ، ولسنا ندري من أين جاءه هذا المعنى ، مع أن السياق ، والسباق ، يشير إلى أن الأمر بغض النظر هنا ، هو عدم النظر إلى ما لا يحل نظره من الأجنبي ، ولا علاقة لهذا بالتواضع .

ونموذج آخر للمستشرق (فان فلوتن) وهو يعتبر أحد المستشرقين المعنيين بالتاريخ الإسلامي ، المتخصصين في فترة الأمويين والعباسيين ، وتستطيع أن تجد اسمه يتردد في كثير من الكتب الجامعية مرجعا من مراجعهم يباهون به ، ويفتخرون بالاعتماد عليه ، وهو يغريهم بما ينسبه إلى الطبري ، والبلاذري ، واليعقوبي ، والواقدي ونحوهم ، فيخيل للباحثين والدارسين أنه (وثق) كل أخباره ، وأتى بها من منابعها ، فيعجبون به ، ويطمئنون إليه .

السـيطرة العـربيـة :

لفلوتن كتاب بهذا الاسم ، ونظراً لأهميته في مجال التاريخ حظي بعناية من رجال التاريخ عندنا ، فترجمه إلى اللغة العربية سنة ١٩٣٤م الدكتور حسن إبراهيم حسن ومحمد زكى إبراهيم ، وطبعت هذه الترجمة طبعتين ، ثم ترجمه سنة ١٩٨٠م مرة ثانية الدكتور إبراهيم بيضون ، وفلوتن متخصص في تاريخ هذه الفترة ، حيث كانت أطروحته للدكتوراة في الموضوع نفسه ودراسته ومقالاته وأبحاثه تتجه كلها هذه الوجهة .

ومن هنا كان لكلامه وزن وقيمة ، وكان (لتحريفه) للمصادر ، و(خيانته) للمنهج خطر عظيم ، وكان هذا منه جرما أي جرم .

ونحن نلتزم بهدفنا هنا ، فلا يعنينا ما في الكتاب من تهجم على الإسلام والمسلمين ، الذي لا يعدو أن يكون سبا وشتما (بأسلوب أكاديمي) وإنما يعنينا هنا جريمته في حق المنهج ، وكيف حرف المصادر والمراجع وزيفها . وإليك هذا المثال :

جاء في ص ٦٦ : « ولقد أصابت الأسر المرموقة في الكوفة ثراء فاحشا ، كان مصدره (المغانم) والأعطيات السنوية ، فكان الكوفي إذا ما ذهب إلى الحرب ، يصطحب معه أكثر من ألف من الجمال ، عليها متاعه وخدمه » ثم نسب ذلك إلى الطبري : ٢/٨١٠٦س ٨ .

وعلى البديهة نرفض أن يكون هذا الكلام في الطبري ، فنحن نعرف الطبري رضي الله عنه إماما عالما ، مؤرخا محدثا فقيها ، أو على الأقل (عاقلا ، يدري ماذا يقول) !! فكيف يذهب الجندي المقاتل إلى الميدان ومعه أكثر من ألف من الجمال ، تحمل متاعه وخدمه ؟ كيف يقاتل ومعه هذه (الحاشية) ؟ وماذا يصنع بحمل ألف جمل من المتاع في الميدان ؟ وإذا فرضنا أن الجيش كان عشرة آلاف مقاتل (وهذا تقدير متواضع) فكم عدد الجمال التي تحمل

متاعهم ؟ أليست أكثر من عشرة ملايين من الجمال ؟ كيف يتحرك هذا الجيش ؟ وأية طرق تسعهم وأية مياه تكفيهم ؟ وأية مراع تطعمهم ؟ وإذا سقط من الجيش بضع مئات أو آلاف قتلى في الميدان ، فأين تذهب الملايين من الجمال التي تحمل أمتعتهم .

لو قرأ أي عاقل هذا الخبر في أصح كتاب ، لاتهم صاحبه ، أو على الأقل نسبه إلى الخطأ والوهم ، ورفض أن يحكي هذا الكلام أو ينقله .

ولكن المستشرق العظيم في غمرة اجتهاده ، لإثبات أن فتوحات المسلمين كانت انتهاباً لخيرات وثروات البلاد التي فتحوها ، راح يجمع الأدلة من هنا وهناك ، ويلويها ليا ، ويزيفها تزيفا ، إلا أننا ما كنا نتوقع أن يخرج بتزييفه إلى حد اختراع هذه الخرافة ، التي - لاشك - لم ينتبه إليها ، فقد شهدت عليه لا له .

وهل لذلك أصل في الطبري ؟؟

إن عبارة الطبري تقول على لسان قيس بن الهيثم - أحد أصحاب مصعب بن الزبير - قبيل التحامه مع جيش عبْد الملك بن مروان ، يُرغب أهل العراق في القتال ، ويبين لهم حسن معاملة ابن الزبير لهم ، ورفعه لمنزلتهم ومكانتهم : « . . والله لقد رأيت سيد أهل الشام على باب الخليفة ، يفرح إن أرسله في حاجة ، ولقد رأيتنا في الصوائف ، وأحدنا على ألف بعير . . » .

فالقائل هنا يريد أن يوازن لأهل العراق بين معاملة خليفة الشام لأصحابه ، فالسيد منهم يقف بالباب ، ويعتدها تكريما من الخليفة لو أرسله في حاجته ، وبين إكرام حكامهم (الزبيريين) لهم ، فالواحد منهم على ألف بعير ، ومعنى على ألف بعير ، أي أمير ألف ، وكان هذا أكبر لقب في الجيش ، بعد القائد العام ، أي أنهم في كنف الزبيريين كلهم أمراء[٣٢].

حـ - التعســـف في التفســير والاســـتنتاج :

فإذا تركنا شروط المنهج ، وما رأيناه آنفا ، من أن المستشرق محروم منها وجدنا لونا آخر ، بل ألوانا من خيانة المنهج ، لا يرجع الأمر فيها إلى القصور والعجز ، بل يرجع إلى فقد شرط المنهج الأول ، أعني ما ذكرناه آنفا من البراءة من الهوى ، وسنعرض طرفا من أفانين خيانة المنهج ، ونبدأ بما سمينا (التعسف في التفسير والاستنتاج) فهنا لا يكون اللفظ العربي

---

(٣٢) انظر : العسكرية العربية للواء الركن محمود شيت خطاب ، كتاب الأمة رقم (٣) ص ٤٤ .

مستعصيا مستغلقا على المستشرق ، ويمكنه ـ لو أراد ـ أن يفهمه فهما صحيحا ، ولكنه يميل مع هواه فيُنطق النص بما يتفق وهدفه ، ويشبع هواه ، والأمثلة على ذلك كثيرة ـ ككل خيانات المستشرقين ـ لا تقع تحت حصر ، ولكن يكفي أن نذكر مثالا للمستشرق (المنصف) (المعتدل) م. وات : وذلك حين يفسر أمر القرآن الكريم للمؤمنين بالاستئذان قبل الدخول لبيوت غير بيوتهم ، وأمر المؤمنين والمؤمنات بغض البصر [سورة النور : ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١] . يفسر ذلك بانحطاط في مستوى الأخلاق ، كان النبي صلى الله عليه وسلم ، بحاجة إلى السمو به [٣٣].

فمن أين أتى بهذا الاستنتاج ؟؟ وهل تسمح النصوص القرآنية الكريمة بأن يستنتج منها هذا الاستنتاج العجيب .

هل إذا كانت الأخلاق (غير منحطة) يسمح بدخول بيوت الغير بدون استئذان ؟؟

أ إذا نصح هذا المستشرق ابنه وهو يؤدبه ويعلمه ألا يدخل بيتا غير بيته ، إلا بعد أن يستأذن ، أيدل ذلك (على انحطاط مستوى أخلاق ابنه) ؟؟ وعلى انحطاط مستوى أخلاق مجتمعه ؟؟ . .

وإذا لم يكن هذا كافيا ، فسنضع بين يديك مثالا آخر ، من كلام (فلوتن) أيضا : جاء في صفحة ٦٨ قوله : « وفي عهد عمر الثاني (عمر بن العزيز) الذي آلت إليه الخلافة في دمشق ، شكا أهل سمرقند ظلامتهم للخليفة الجديد ، وما نزل بهم من خراب وتدمير على يد قتيبة ، فأمر عمر بتعيين قاضٍ خاص للنظر في هذه المسألة ، وجاء قراره من الخبث ، ما يبدو واضحا لأي قارىء متجرد ، حيث قضى بأن يتحارب الفريقان ـ العرب وأهل سمرقند ـ وراء أسوار المدينة ، وأن يؤخذ هؤلاء بالقوة قبل عقد معاهدة جديدة معهم .

فإذا ما انتصرت العرب ، وهو ما كان محتملا (حيث فقد أهل سمرقند خاصية الدفاع عن مدينتهم داخل أسوارها) عادوا مرة أخرى إلى فتحها عَنوة وانطبقت عليها شروط الاحتلال العسكري ، إلا إذا امتثلوا لتلك الشروط التي فرضها العرب عليهم . أي أن قرار القاضي لم يغير شيئا في وضع المدينة » أ. هـ. [٣٤].

هذا هو نص كلام (فان فلوتن) ، وقد أسنده للطبري جزء ٢ ص ١٣٦٤ ، وإلى البلاذري : ٤٢٠ ـ ٤٢٢ .

---

(٣٣) محمد « صلى الله عليه وسلم » في المدينة : ٤٣٦ .

(٣٤) بنص حروفه ، الدولة الأموية والمعارضة ، ٦٨ .

وقبل أن نناقش هذه الفقرة نشير إلى ملاحظة قد يبدو أمرها هينا ، ولكنها لاشك ذاتُ وزن وقيمة ، عند من يلتزم (بالمنهج) ويرعى حرمته ، ذلك أننا لم نجد أثرا لهذا الكلام عند البلاذري ، لا في الموضع الذي حدده ولا قبله ، ولا بعده ، ولا في كل ما ذكره عن فتح (سمرقند) .

ثم ننظر في عبارة (فلوتن) بكل تجرد ـ على تعبيره ـ فنجده يقول فيها ما يأتي :

(١) : إن أهل (سمرقند) شكَوْا إلى عمرَ بنِ عبد العزيز ، ما أصابهم من خراب وتدمير وظلم على يد (قتيبة) .

(٢) : إن الخليفة قبل الدعوى ، وعين لهم قاضيا ينظر في وقائعها .

(٣) : إن القاضي رأى أنهم محقون .

(٤) : إن حكم القاضي كان خبيثا بينا واضحا لكل من يقرؤه بتجرد .

(٥) : إن خبث الحكم جاء من أن القاضي حكم بأن يتحارب الفريقان ـ العرب وأهل سمرقند ـ خارج أسوار المدينة ، فإما انتصر العرب ، فدخلوها عَنوة ، وإما استسلم أهل (سمرقند) فدخلها العرب صلحا .

(٦) : إن خبث هذا الحكم ظهر في فرضه على أهل سمرقند أن يخرجوا خارج أسوار المدينة « ففقدوا خاصية الدفاع عن مدينتهم داخل أسوارها » .

(٧) : إن قرار القاضي لم يغير من الواقع شيئا .

هذه الأحكام كلها جاءت في هذه العبارة الموجزة من كلام (فلوتن) ، وقال إنه استقاها من الطبري .

فمـــاذا عـــند الطـــــبري ؟؟

سنضع أمامك نصَّ الطبري كاملا ، لنرى هل يمكن أن نفهم منه هذه الأحكام ، جاء في الطبري ما نصه : « قال أهل (سمرقند) لسليمان (واليهم) : « إن قتيبة غدر بنا ، وظلمنا ، وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف ، فائذن لنا ، فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين ، يشكون ظلامتنا ، فإن كان لنا حق أعطيناه ، فإن بنا إلى ذلك حاجة ، فأذن لهم ، فوجهوا منهم قوما ، فقدموا على عمر ، فكتب لهم عمر إلى سليمان ابن أبي السري (أي والي سمرقند) : إن أهل سمرقند قد شكَوْا إليّ ظلما أصابهم ، وتحاملا من قتيبة عليهم ، حتى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابي ، فأجلس لهم القاضيَ ، فلينظر في أمرهم ، فإن قضى لهم ، فأخرجهم إلى معسكرهم ، كما كانوا ، وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة .

فأجلس لهم سليمانُ جُميعَ بنَ حاضر القاضي الناجي ، فقضى أن يخرَج عرب سمرقند إلى معسكرهم ، وينابذوهم ، على سواء ، فيكون صلحا جديدا ، أو ظفرا عَنْوة .
فقال أهل السغد (أي سمرقند) : بل نرضى بما كان ، ولا نجدد حربا ، وتَرَاضَوْا بذلك ، فقال أهل الرأي (أي منهم) : قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم ، وأمنونا وأمناهم ، فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ، ولا ندري لمن يكون الظفر ، وإن لم يكن لنا ، كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة ، فتركوا الأمر على ما كان ، ورضوا ، ولم ينازعوا »أ.هـ . بنص حروفه .

وحين نقف أمام هذا النص (متجردين) كما ينصحنا فلوتن - **فهل نجد فيه أن القاضي حكم بإخراج أهل سمرقند خارج أسوار مدينتهم ، وأفقدهم بذلك خاصية الدفاع عنها ، داخل أسوارها** ؟ إن نص الطبري أمامنا واضح تمام الوضوح ، وقد جاء ذكر هذا الأمر في عبارتين هما :

(الأولى) - ما جاء في رسالة الخليفة عمر بن عبد العزيز : « . . فأجلس لهم القاضي ، فلينظر في أمرهم ، فإن قضى لهم ، **فأخرجهم إلى معسكرهم** ، **كما كانوا وكنتم** ، **قبل أن ظهر عليهم قتيبة** .

(الثانية) - ما جاء في منطوق حكم القاضي : « . . **أن يخرج عربُ سمرقند ، وينابذوهم على سواء** . . . . » .

فأين في هذا الكلام إخراج أهل سمرقند خارج أسوار مدينتهم ؟؟

إن العبارة الأولى ، عبارة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، تأمر إن قُضي لهم ، أن يُخرج القوات الإسلامية من المدينة ، لا أن يُخرج أهل سمرقند ، ولقد قطع الخليفة رضي الله عنه أي احتمال للخطأ في الفهم ، ففسر المقصودين بالإخراج بقوله : « كما كانوا وكنتم ، قبل أن ظهر عليهم قتيبة » . **أي عودة الوضع إلى ما كان عليه « قبل أن يظهر عليهم قتيبة !!** » وهل كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة خارج أسوار مدينتهم ؟؟ إن عبارة الخليفة هذه لم تدع مجالا لوهم من يتوهم أن الضمير في قوله : « فأخرجهم : يعود على أهل (سمرقند) عملا بالقاعدة التي تقول : « إن الضمير يعود على أقرب مذكور » وهم هنا الشاكون : أهل سمرقند ، ثم إن العرب لم يرد لهم ذكر في اللفظ حتى يعود عليهم الضمير ، قطعت العبارة الأخيرة « . . **كما كانوا وكنتم** ، **قبل أن ظهر عليهم قتيبة** » هذا الوهمَ ، مع أن المقام عند من يلحظ السياق ليس في حاجة إليها ، ذلك أن الشكوى كانت من (دخول المسلمين) : (جيش قتيبة) فكان قوله : « فإن قضى القاضي للشاكين فأخرجهم » كافيا في بيان أن المراد

بالضمير هم المسلمون ، فهو بمثابة ، قوله : « شكَوْا إليّ ، فإن حكم لهم القاضي فأزل شكواهم ، أي سبب شكواهم » وسبب شكواهم ، هو دخول جيش المسلمين مدينتهم ، وإزالة السبب يعني إخراجهم .

كان هذا وحده كافيا ، لأن يفهم القارىء (المتجرد) مَن المقصود بالإخراج ولكن جاءت العبارة الأخيرة في رسالة الخليفة « **كما كانوا وكنتم ، قبل أن يظهر عليهم قتيبة** » لتقطع أي وهم ، مع أن ما قبلها كان كافيا للفهم السليم ، فجاءت بمنزلة التأكيد .

وأما العبارة الثانية ، وهي : « ... فقضى (القاضي) أن يخرج عرب سمرقند ، إلى معسكرهم ، وينابذوهم على سواء » فهي أيضا في غاية الوضوح عند القارىء المتجرد ، وليس فيها أي لبس أو احتمال ، فقد وضع القاضي الاسم الظاهر ، مكان الضمير « يخرج العرب » ثم أيضا أكد المعني بقوله : « وينابذوهم على سوء » أي لا يبدءوهم بحرب إلا بعد أن يعالنوهم بها ويعلموهم .

فمن أين أتى القارىء (المتجرد) فلوتن بأن حكم القاضي جاء بإخراج أهل سمرقند من مدينتهم ، وبالتالى أفقدهم خاصية الدفاع عنها داخل أسوارها » ؟ من أين أتي بهذا الفهم المعتسف العجيب ؟ إن الأمر هنا ليس أمر خطأ ، أو وهم ، فالعبارة واضحة للقارىء (المتجرد) كما رأينا ، وإنما هو التعسف وليّ أعناق النص ليصل إلى النتيجة التي رتبها على هذا الفهم ، **وهي الحكم بخبث القاضي وسوء نيته** ، حيث لم يستطع إنكار صدق أهل سمرقند ، في دعواهم ، فتظاهر بالإنصاف وأنه حكم لهم ، ولكن جاء حكمه لا قيمة له حيث « لم يغير شيئا في وضع المدينة » ..

هذا هو السر في لي عنق النص ، والتعسف في تفسيره .

إن الرجل راعه - وهو المتحامل على الفتوحات العربية أبشع التحامل ، أن يرى هذه الصفحة الناصعة ، وأعشى ضوؤها بصرَه ، فراح يتلمس في ظلام الحقد وسيلة يطمس بها هذه الروعة ، فلم يجد إلا هذا التزييف والتحريف ، لكي يفرج به عما يعانيه من مكنون حقده ، فيرمي قاضينا العظيم (بالخبث) قائلا : « فجاء قراره من الخبث ، ما يبدو واضحا لأي قارىء متجرد » !! فأين الطهارة إذاً ؟؟

ونترك الآن استكراهه للعبارة ، ولي عنقها ، وإنطاقها بما لا تنطق به ، ونناقشه فيما سلم به وخطه بيمينه ، وذلك قوله : « شكا أهل سمرقند ظلامتهم للخليفة ، وما نزل بهم من خراب ، وتدمير على يد قتيبة » كيف يمر الباحث (المتجرد) على هذه (العجيبة) ولا يلتفت إليها ؟ بلدة مفتوحة ، فتحها سعيد بن عثمان - ثم عادت فانتقضت - ذكر ذلك فلوتن بنفسه

في الموضع نفسه ـ ففتحها قتيبة ثانية ، بعد معارك شرسة وصفها الطبري ، وقرأها (فلوتن) طبعا ـ تفكر في الشكوى إلى الخليفة ، مجرد خطور هذا بالذهن ، بذهن أهل المدينة المفتوحة ، أليس لهذا مدلول ؟

من الشاكي ؟ ومن المشكو ؟ ومن المشكو إليه ؟

تشكو بلدة مهزومة مفتوحة ، تشكو القائد الفاتح ، تشكوه لحاكم الدولة التي كلفته بالفتح !! أيمكن أن يأتي هذا من فراغ ؟ ألا يشهد ذلك بأن هؤلاء الشاكين كان عندهم ـ لاشك ـ علم بأن وراء هؤلاء الفاتحين نظما وأخلاقا ومبادىء تحكمهم ، ألا يشهد ذلك بأن هذه المبادىء وهذه النظم قد تداولها سمعُ الدنيا ، وملأت آفاق الأرض ، حتى سمع بها من في سمرقند على بعدما بين سمرقند ودمشق ، وعلى قلة وسائل الاتصال والإعلام آنذاك ، أن يأمل ـ مجرد أمل ـ مَنْ في سمرقند أن يشكو قائدَ الجيش وجيشَه في دمشق ، وأن يكون ذلك قبل أكثر من ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، فهذا وحده كاف أن يروع الباحث (المتجرد) ليقف ويبحث ويتأمل ، ليدرك سرَّ هذه المبادىء ، وهذه الأخلاق وهذه القوانين ، بل سر هذا الدين الذي بنى هذا كله .

ثم إذا لم يلفت نظره ويبهره تفكير أهل سمر قند في الشكوى . . . ألا يروعهم أنهم استأذنوا واليهم ، وأعلموه أنهم ذاهبون إلى دمشق للشكوى إلى الخليفة ، فأذن لهم[٣٥] !! يا سبحان الله !! أية سماحة !! وأية أخوة !! وأية رحمة !! تصل إلى هذا الحد .

ثم إذا لم يلفته ذلك إلى سماحة الإسلام ، وعظمة مبادئه ، ألا يروعه استقبال الخليفة لهذا الوفد ، وهو الحاكم العام لتلك الدولة ، التي كانت تمتد من (كابل) شرقا إلى (طنجة) غربا ، ومن جبال البرانس شمالا إلى جبال النوبة جنوبا ، لم تشغله شئون هاتيك البلاد المترامية الأطراف عن مقابلة الوفد الشاكي والاستماع له « لم يحوله على المختص بشئون الشرق الأوسط » . ثم قبل الدعوى وأمر بالحكم فيها .

ثم جلس القاضي للحكم ، ونظر في القضية ، وحكم قاضي الدولة الفاتحة ، على قائد دولته ، وجنوده !! . قاضٍ يحكم على دولته بإجلاء جيشها ، وإخراجه من المدينة التي

---

(٣٥) من طريف التعليقات التي يصح أن تُذكر هنا ، أن ثورة مصر سنة ١٩١٩م قامت بسبب منع الوفد المصري من السفر إلى مؤتمر الصلح بباريس ، واستنجاز بريطانيا وعدَها بالجلاء ، فقد ذهب أعضاء الوفد يستأذنون المندوبَ السامي ، فلم يأذن لهم ، وزاد فقبض عليهم ، ونفاهم خارج مصر ، فهاج الشعب واندلعت المظاهرات ، ثم كانت الثورة .

دخلها عَنوة !!

أيضرب فلوتن عن كل هذا صفحا ، وهو بين عينيه ، قرأه عند الطبري ، ونقله عنه في كتابه ، ولا يلفته ذلك ، لا تلفته هذه الصفحة الرائعة من حضارتنا ، ومن صفحات فتوحاتنا ، فتوح العدالة ، والرحمة ، وتحرير الإنسانية ، لم تكن الدنيا بعدُ قد عرفت القانون الدولي العام ، ولا القانون الدولي الخاص ، ولم تكن بعدُ قد تفتقت الأذهان عن عصبة الأمم الموءودة ، ولا مجلس الأمن المعوج ، ولا الجمعية العامة للأمم المتحدة الشلاء .

لم يكن شيء من ذلك ، ولكن أمتنا قد عرفت العدل ، والإنصاف ، في السلم والحرب فلم تعرف الدنيا ، ولن تعرف ـ إلا إذا عاد المسلمون لقيادتها ـ حربًا يلتزم أصحابها ـ منتصرين ومنهزمين ـ بمبادىء الحق والأخلاق إلا فتوحات الإسلام ، ولن ترى الدنيا قاضيا ـ بعد قاضينا ـ يحكم بإجلاء جيش بلاده عن المدينة التي فتحها ، وبذل في سبيل دخولها أرواحا غالية ، وساعات عصبية ، وأثقالٍ غالية ، كل ذلك لاحتمال أن القائد لم يكن قد عالنهم بالحرب .

إن المستشرق (فان فلوتن) عاش حياته في القرن التاسع عشر(٣٦)، قرن الاستعمار ، ورأى بلاده (أوربا) وهي تجتاح دولنا وتتقاسمها أحيانا بالمعاهدات والاتفاقات ، وتتقاتل وتتنازع عليها أحيانا أخرى ، وفي أثناء كلامه يستخدم كثيرا لفظ (احتلال) واصفا به الفتوحات الإسلامية ، ألم يسائل نفسه ما بال قومه ، يفعلون كل هذا ، أو ما بال دولته (هولندا) تصنع ما تصنعه بالدول التي احتلتها ، فأذاقتها الهوان .

وإذا نعجب من هذا الباحث (المتجرد) الذي لم يرُعه ذلك ، ولم تختطف بصره نصاعة هذه الصفحة ، **فإن الذي لا ينقضي العجب منه هو موقفه الغريب من بقية القصة ، فقد عمي عنه تماما ، وأخفاه عن قارئه ، مع أنه جزء من القضية والحم والتنفيذ ، وتلك جريمة منهجية أخرى أبشع وأفظع ؛ فقد كان بين أصابعه ، وملء عينيه اللتين في رأسه ، قول أهل سمرقند ، المحكوم لهم ونصيحة ذوي الرأي منهم ، فقد حكاه الطبري ، عنهم فقال :**
« فقال أهل السغد (سمرقند) (أي بعد الحكم) : بل نرضى بما كان ، ولا نجدد حربا ، وتراضَوْا بذلك .

فقال أهل الرأي : قد خالطنا هؤلاء القوم ، وأقمنا معهم ، وأمنونا وأمنَّاهم ، فإن حُكم

---

(٣٦) توفي سنة ١٩٠٣ م .

لنا عدنا إلى الحرب ، ولا ندري لمن يكون الظفر ، وإن لم يكن لنا ، كنا قد اجتلبنا عداوةً في المنازعة ، فتركوا الأمر على ما كان ، ورضوا ولم ينازعوا »[٣٧].

ويلوح لي ـ وهو صحيح إن شاء الله ـ أن أهل الرأى الذي حكى الطبري كلامهم هذا لم يكونوا مؤيدين للشكوى إلى الخليفة ـ ولرفع الدعوى ؛ إذ كانوا يرون أن ما هم فيه أفضل وأولى ، . . وقد خالطنا هؤلاء القوم وأمناهم ، فهم مع المسلمين في أمن ونعمة وعافية ، ويخشَوْن أن يجددوا العداوة مع المسلمين لو حكم لهم القاضي ، فلو كان هؤلاء ، في ذل الاحتلال ومهانة السيطرة ، وفي ضيق الظلم ، والعدوان والنهب ، لكانت الحرب هي الملجأ والمخلص مما يعانون ، أيا كانت نتيجتها ، لكن أن يرتاح (أهل الرأي) من أهل سمرقند إلى المسلمين الفاتحين ، ويرَوْن أنه لا داعي لشكواهم ، ولو ضمنوا الحكم لهم ، (لأنهم خالطوهم فعرفوهم وأمنوهم) فهذا شيء لا يعجب المستشرق الباحث (المتجرد) ربيب (الأكاديميات) وسليل (الجامعات) ، ولأنه لا يعجبه ، فيجب أن يبتره من النص ، حتى لا ينقض عليه كتابه ، ويهدم الأساس الذي قام عليه ، وهو تبشيع أمر الفتوح الإسلامية ، وإثبات أنها ما كانت إلا للنهب وقطع الطريق ، وليس هذا من (فلوتن) بغريب ، ولا عجيب ، فالرجل يكتب لبني قومه ، كما قلنا ، لغرض ولهدف محدد ، فلا تثريب عليه .

ولكن العجب كل العجب من بني قومنا الذين يسمون هذا الكلامَ (بحثا) ويسمونه (علما) .

د ـ التفسير بالإسقاط :

ونعني بهذا إسقاط الواقع المعاصر المعيش ، على الوقائع التاريخية الضاربة في أعماق التاريخ ، فيفسرونها في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة وما يعرفونه من واقع حياتهم ومجتمعاتهم ، فيتناولون بيعة أبي بكر يوم السقيفة ، وكأنهم ، يحللون انتخابات الرئاسة في أمريكا ، بألاعيبها وفضائحها الحزبية ، ويفسرون خروج طلحة والزبير على عليّ رضي الله عنهم جميعا ، بأنه خوف على ثرواتهما التي جمعاها ، أثناء الفتوح ، ومن غنائم الفرس ، والروم ، وكأنهم ينظرون إلى الصراع بين شركات الصلب ، أو شركات السلاح ، ومؤسساتهم الرأسمالية الضخمة ، التي تصارع للتأثير على السلطة ، وعلى صناعة القرار ،

---

(٣٧) ابن جرير الطبري ، تاريخ الطبري : ٥٦٧/٦ ، ٥٦٨ ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٤م ، جـ ٢ ، ص ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، من طبعة أوروبا .

مع أن أول وأبسط قواعد تفسير النصوص ، وفهمها ، هو المعرفة التامة لروح العصر ، ولما يسمونه ، جو النص ، ثم المعرفة بحياة قائل النص : نشأته وثقافته ، وحياته ، وأعماله ، هذه المبادىء يتعلمها الشادون المبتدئون ، في الصفوف الأولى من التعليم المتوسط .

ولكن هؤلاء المستشرقين يغضون الطرف عن قواعد المنهج ، بل يدوسون قواعد المنهج ويمتهنوها .

فمن عرف تاريخ أبي بكر ، وعمر ، وأبي عبيدة ، وحياتهم ، وكيف جاهدوا في الله بأموالهم وأنفسهم وكيف كانت الآخرة أمام أعينهم ، وكيف كانت حقارة الدنيا في نظرهم ، كيف يستطيع أن يفسر ما دار يوم السقيفة ، على أنه اتفاق بين الثلاثة ، على أن يُعين عمرُ وأبو عبيدة أبا بكر ، على شرط أن يعهد بها أبو بكر لعمر ، ثم يعهد بها عمرُ إلى أبي عبيدة !! إن هذه صورة منتزعة من واقع انتخابات عصرنا ومؤامراته ، ويستحيل على من عنده أدنى معرفة برجال صدر الإسلام ، وبروح العصر ، ومشاعر المسلمين يوم السقيفة ، أن يقبل هذا التفسير الذي يُسقطونه من داخل أنفسهم على وقائع تاريخنا .

وكيف يقال : إن طلحة والزبير كانا يخشيان على أموالهما ، وهما من هما تضحية وبذلا في سبيل الله ، إن هذا الطراز من الرجال الذين كانوا لا يبالون أيقعون على الموت أم يقع الموت عليهم ، كيف يخافون على عرض زائل ؟ وقد ظهر كذب هذا التفسير وزيفه ، إذ ثبت بأصدق الروايات ، وأوثقها ، أن الزبير يوم مات لم يكن ماله يكفي لسداد ديونه[٣٨] .

ومن طرائف التفسير بالإسقاط ، أو الإسقاط في التفسير ، ما رأيناه عند المستشرق الإنجليزي (منتجومري . وات) إذ فسر ما كان من خلوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، في غار (حراء) قبيل البعثة ، بأنه كان هروبا من حر مكة ، وابترادا في رأس الجبل ، جبل حراء ، حيث كان محمد (صلى الله عليه وسلم) فقيرا لا يستطيع السفر إلى الطائف ، مثل أغنياء قريش !![٣٩] .

فهو هنا أمام حدث قديم ، وقع في مكة ، منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، ولكنه يفسره ويعلله ، بروح عصره هو ، ويُسقط عليه مشاعر واتجاهات ، وعادات وقيم عصره ، الآن ، يفسره وفي ذهنه ، رحلات المصطافين في عصرنا هذا ، وكيف يُعدون لها ، وينفقون

---

(٣٨) لسنا لعلاج هذه القضية الآن ، وإن شئتَ فراجع بحثا لنا بعنوان : « الزبير ابن العوام ، الثروة والثورة » . مكتبة ابن تيمية بالبحرين سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

(٣٩) محمد « صلى الله عليه وسلم » في مكة : ٨١ .

في سبيلها ، يفسر هذا الحدث وفي ذهنه قمم الجبال المعشوشبة ، التي يكسوها الجليد والبرد .

ولم يكلف نفسه ، بل لم يستطع أن يدرك واقع المجتمع المكي ، آنذاك ، بل واقع المناخ في مكة ، والفرق بين درجة الحرارة في شعاب مكة ورأس جبل حراء ، وهل حقا تنخفض الحرارة في رأس (حراء) عند الغار ـ وهو مازال موجودا للآن ـ انخفاضا ملموسا يجعل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلجأ إليه ، لم يذكر أحد قط ممن كتبوا عن مكة وأهلها آنذاك ، أن الفقراء كانوا يصطافون بالجبال ، والأغنياء كانوا يصطافون بالطائف .

إن الرواية الصحيحة تقول : « إنه صلى الله عليه وسلم حُبب إليه الخلاء ، فكان يذهب إلى غار حراء يتحنث فيه ، ويظل به الليالي ذوات العدد ، قبل أن يعود لأهله ليتزود لمثلها » . . . .

فكيف يختلي بجبل هو مصطاف الفقراء من أهل مكة ، أم يا ترى كان محمد « صلى الله عليه وسلم » ، هو الفقير الوحيد في مكة ، فخلا له جبل حراء ؟؟

أم تراه هو الوحيد الذي أدرك السر الخطير ، وهو برودة رأس الجبل ؟ وضن به على غيره ، فلم يشاركه في خلوته بالجبل أحد ؟؟

أم يا ترى كان في مكة جبال بعدد فقرائها ، لكل فقير ـ لا يقدر على السفر إلى الطائف ـ جبل ؟؟

ثم أين تقع الطائف من م كة ؟؟ ألم يقرأ أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، ذهب إلى الطائف ماشيا بعد أكثر من عشر سنوات ، أي بعد أن كبرت سنه ، حينما اشتد إيذاء قريش وعنادها ، ليعرض الدعوة على شيوخ ثقيف ؟؟

ثم كيف يستقيم له هذا الفهم العجيب ، والتفسير الغريب ، (العجز المالي) مع حديثه في كتابه هذا نفسه ص ٧٣ ـ ٧٥ عن زواج محمد صلى الله عليه وسلم ، من خديجة وثراء خديجة ، فهل كانت خديجة (رضي الله عنها) عاجزة عن إعطاء محمد صلى الله عليه وسلم ، ناقة يسافر عليها إلى الطائف ، مع نفقات الإقامة .

ثم لماذا لم يسأل نفسه عن السبب في عدم انتقال خديجة إلى الطائف ، لتصطاف بها مثل أثرياء مكة ؟؟

إن السبب في هذا التفسير العجيب الغريب ، هو تصور واقع الصيف والمصطافين في عصرنا هذا : نفقات ورحلات وسيارات وفنادق . . . الخ .

ولو حاول أن يستشرف الواقع ، في عصر البعثة ، ويتمثل أحواله ، لأدرك أن الأمر على

غير ما فسر وقدر . وإنما هو كما روت السيدة عائشة رضي الله عنها ، (كانت الخلوة للتحنث) .

ونجد هذا (التفسير بالإسقاط) عند (لامانس) حين يحدثنا عن مكة والمدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعلى حد تعبير (دينيه) « يفسد ـ متعمدا الصورة التاريخية : فيعطينا صورة أوربية حديثة ، وكأنه يحدثنا عن باريس ولندن ، حينما يتحدث في جزيرة العرب عن الحملة الصحافية ، عن الماليين في بنك مكة . مليارات ، النقابة القرشية ، الضريبة على الدخل ، طبقة العمال ، إبلاغ الرسالة إلى محل الاقامة ، ديوان ذي الجلال ، وزارة الله ، إلى آخر هذه التعبيرات الحديثة التي تفسد الصورة ولا تصور الحقيقة »[٤٠].

هـ ـ منهج العكس :

هو نوع آخر من الفساد ، يعتري البحوث والدراسات الاستشراقية ، وهو غير المنهج المعكوس (المقلوب) أي الذي توضع فيه النتائج مقدما ، ثم يكون البحث عن الأدلة التي تؤيدها ، فذلك قد أشرنا إليه قبلا ، حين تحدثنا عن الخضوع للهوى ، وعدم البراءة من سلطانه ، وجعلنا من آثار الخضوع للهوى هذا المنهج المعكوس .

أما منهج العكس ، فنعني به شيئا آخر ، وهو أن ينظر الباحث في النصوص والوثائق ، والروايات ، فإذا قالت شيئا ، فعليه أن يدرك أن الصواب هو عكسه تماما .

يقول ناصر الدين دينيه (الذي كان من كبار المستشرقين الفرنسيين وهداه الله للإسلام) وهو ينتقد أعمال المستشرقين وأبحاثهم : « إن منهج العكس هو ذلك المنهج الذي يأتي إلى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء ، فيقلبها ـ متعمدا ـ إلى عكسها وكلما كانت الأخبار أوثق بدت ـ قوية جامحة ـ الرغبة في البراءة من ذلك الذي يتبع هذا المنهج ، ولما كان ينبغي أن يستند إلى دعامةٍ مّا ، فقد تبنى أصحاب هذا المنهج الفكرة التي تقول : « **البشر يعملون غالبا على كتمان عيوبهم والظهور بنقيضها** »

ويستمر ناصر الدين قائلا : « وهذه فكرة لا يمكن أن تتخذ كمبدأ عام ، وإلا كنا مضطرين إلى كتابة التاريخ بأجمعه من جديد ، وعكس صورة الطبيعة كلها عكسا تاما . إن جميع القديسين إذاً أشرار ، وجميع الأنبياء طالحون ، وجميع الشجعان جبناء ، وجميع

---

(٤٠) انظر : د . عبد الحليم محمود ، أوربا والإسلام : ١٣٦ .

الأديان تهريج .

وقد شاع هذا المنهج عند بعض المتحذلقين حتى أصبح (موضة) . . .

ولقد أراد بعض الظرفاء أن يسخر من أتباع هذا المنهج ، فألف رسالة دلّل فيها في براعة بارعة ، على أن نابليون لم يوجد قط ، وأن تاريخه أسطورة ملفقة ابتدعتها فرنسا ، تريد بها التغطية على ما يشاع من ضعفها الحربي » . .

ثم يستمر (دينيه) مدللا على فساد هذا المنهج ، وكأنه يوجه كلامه لمتعصبة المستشرقين ، فيقول : وإننا لو نظرنا في الأناجيل ، من هذه الوجهة واتبعنا هذه السنة ، لوجب أن نتناول كل حسنة فيها ، ونعكسها . . وإذن لما بقي جديرا بمودة (القسيس) إلا (هيرود) و (يهودا) اللذان يجب أن يرفعا إلى مصاف القديسين الأخيار[٤١] .

ولقد كان المستشرق (لامانس) اليسوعي من أكثر المستشرقين ، اعتمادا على منهج العكس ، وهذه نماذج من ثمار استخدامه لهذا المنهج :

« إن مما لاشك فيه ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان شجاعا ، لقد كان يقود الجيوش في الغزوات ، ولم تطر نفسه شعاعا في أية واحدة ، منها ، ولا يوم أحد ـ وقد ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ـ ولم تهله كثرة الجيوش المعادية في غزوة الخندق ، يوم أن زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، ولم ترعه النبال كالمطر ، يوم حنين . . ومع ذلك ، فإن « لامانس » يصفه بعدم الشجاعة ، ثم يحاول أن يعمم الحكم على العرب قاطبة ، يقول :

« زعموا أن العربي يتسم بالشجاعة ، بل لقد عللوا النجاح في الفتوح الإسلامية الأولى بما يمتاز به العربي من صفات ومزايا ، ولكني أتردد كل التردد في قبول هذا الرأي المبالغ فيه كل المبالغة . . إن شجاعة العرب إنما هي من نوع غير سام »[٤٢] .

ويرد (ناصر الدين دينيه) هذه الفرية ، مؤكدا شجاعة العرب مذكرا إياه بمواقفهم في الحرب العالمية ، ومساندتهم للحلفاء (قوم لامانس) وأحاله على شهادة القواد الغربيين للمقاتلين المسلمين ، فقال :

« والرد على القسيس اللبناني بسيط ، ويكفي أن نُسدي إليه هذه النصيحة : وهي أن يقرأ آلاف الشهادات التي نالها من قيادة جيوش الحلفاء الجنودُ المسلمون الشجعان ، الذين حاربوا دفاعا عما اعتقدوه حقا ، فكانوا من عوامل النصر في الحرب الكبرى ، لقد أثارت فرق الهجوم

---

(٤١) انظر د . عبد الحليم محمود ـ رحمه الله ـ أوربا والإسلام : ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٤٢) السابق نفسه : ١٢٩ ـ ١٣٠ .

منهم إعجاب العالم أجمع ، وإن هذه الشهادة في أسلوبها العسكري الموجز صرح شامخ مجيد ، يسجل روح التضحية والبطولة لدى العرب المغاوير.

وإن سهام النقد ، مهما بلغت من العنف ، لا يمكن أن تنال من هذا الكتاب الذهبي النفيس ، ذلك أنه مكتوب بخط قواد منصفين ، لا يمتون إلى الأمة العربية بصلة الجنس أو الدين .

ومن المعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتحنث في غار حراء ، ينفرد بنفسه يستجمع ذهنه وشعوره ، منصرفا كل الانصراف عن هذا العالم المادي ، مستغرقا في التفكير في الله ، ولكن ، « لامانس » يؤكد أنه كان يكره الوحدة !!

ومن المعروف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير ، وكان يأتي على آل محمد الشهر ، والشهران لا يوقد في بيت من بيوتهم نار ، وكثيرا ما كان قوته التمر والماء ، وكان رسول الله عليه السلام يعصب على بطنه الحجر من الجوع ، ومع ذلك فإن « لامانس » يصفه بأنه أكول ، وقد كثف جسمه بالملذات ، ولا يذكر شيئا عن صوم الرسول لشهر رمضان ، وأنه كان أكثر ما يصوم الإثنين والخميس ، وكان يصوم حتى يظن أنه لا يفطر ، وقد كان الرسول من أكثر المسلمين صوما ، ولكن القسيس ، « لامانس » يثبت على عناده !!

ويقول الله تعالى :

(إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) [سورة المزمل ٢٠].

وقد نقلت الأخبار : أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه لطول وقوفه في الصلاة ومع ذلك ، يقول «لامانس » : « كان محمد نؤوما [٤٣].

ونستطيع أن نقول له :

إن مشركي قريش قد لجوا في عنادهم كل اللجاجة ، وكانوا يبحثون بعيون طُلعة عن أي مطعن أو مغمز ، فلو رآوا أن ما جاء في القرآن من وصف محمد صلى الله عليه وسلم ، بالقيام ليلا ، لا يصدقه واقع الحال ، لكان لهم شأن ، ولنقل إلينا هذه المعارضة .

وقد ناقشه (ناصر الدين دينيه) بقوله :

---

(٤٣) السابق نفسه : ١٣٠ ـ ١٣٢ .

« وهو ـ أي لامانس ـ لاشك يجهل أو يتجاهل أن روح النقد عند العرب تبلغ حد الإفراط ، وأن هؤلاء لو رأوا ما يكذب خبر القرآن من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقضي جزءا كبيرا من الليل في العبادة ، لما استمروا على متابعته وتصديقه ، ولما احتفظ هو بثقتهم » .

وإنه لمن المعروف أن العالم لم ينجب من أمثال سيدنا عمر إلا أفرادا يعدون على الأصابع : إن عمر من أعظم الفاتحين المصلحين ، الذين عرفهم التاريخ ، وإن عدالته الرحيمة الصارمة ، وسياسته الحكيمة النافذة ، وإدارته الدقيقة الساهرة ، كل ذلك يجعله من هؤلاء الذين لا يظفر التاريخ بأمثالهم إلا في دهور دهيرة ، وإننا حقا لا نكاد نجد من يشابهه في التاريخ ، اللهم إلا إذا كان الإسكندر الأكبر .

ومع ذلك ، فقد كان عمر في نظر القسيس (لامانس) جنديا مسكينا ، أدنى مرتبة من الوسط ، ولكنه في كراهيته البالغة للإسلام ، ينسى أو يتناسى هذا الوصف ، حينما يريد أن ينقص ـ معاذ الله ـ من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيذكر أن عمر سيطر عليه هو وأبو بكر .

وليس عمر وحده هو الذي نال من قلم القسيس ، فقد أخذ القسيس يحطم ـ كعاصفة هوجاء ـ كل أخيار المسلمين : الرسول ، أبا بكر ، عمر ، عثمان ، عليا ، فاطمة ، عائشة ، حفصة ، وغيرهم . . . وغيرهم . . .

أما إذا تحدث عن أعداء الإسلام ، كأبي جهل وأبي لهب ، ألد أعداء النبي ، أما إذا ما تحدث عن المنافقين ، خونة الإسلام ، أما إذا ما تحدث عن يزيد قاتل الحسين ، أو بني أمية ـ على وجه العموم ـ فإنه يشيد ما شاء له هواه ، ويمدح ما أمكنه المدح ، ويطري كلما أتيح له الأطراء ، ويلبسهم من الفضيلة ثوبا لامعا خلابا »(٤٤).

أما المنافقون ، فهم أبطال الوطنية ، عند القسيس وإذا تساءلت : من هو هذا الدخيل الذي لم تنبته الجزيرة العربية ، والذي يقف أمامه « أبطال الوطنية القومية » فإنك لا تجد من القسيس إلا صمتا !

أكان محمد « فارسيا » غازيا للجزيرة العربية ؟

أم كان « روميا » يهاجمها ؟

---

(٤٤) نفسه ، ١٣٢ ـ ١٣٣ .

أم هو عربي يحب وطنه ويعمل على جمع شتاته في وحدة تكون قدوة ومثلا أعلى لكل من يشرئب بصره نحو الكمال ؟[٤٦].

وأعجب نموذج ، وأبلغ صورة لمنهج العكس هذا عند « لامانس » أنه إذا أراد أن يؤيد دعواه في قضية من القضايا ، ثم بحث حتى أعياه البحث فلم يجد خبرا لا صحيحا ولا سقيما يؤيد ما ادعاه ، فإنه لا يتراجع ، وإنما يمضي في جرأة نادرة ـ على حد تعبير دينيه ـ ويستمر متشبثا بدعواه ، ويقول : « إن هذا أمر عُني رجال الحديث بكتمانه »[٤٥] هكذا إذا لم يجد الخبر ، فهو حقيقة ولكن تواطأ الرواة على كتمانه .

وليس هذا الفساد المنهجي (منهج العكس) قاصرا على (لامانس) وأضرابه من متعصبة المستشرقين ، بل إننا نلحظة عند كثيرين منهم ، ولكن بدرجات متفاوتة ، فمن ذلك مثلا ، ما نراه عند (ول . ديورانت) في كتابه قصة الحضارة حيث لا يعجبه أن المؤرخين في كل ما كتبوه « صوروا هارون الرشيد ـ أولا وقبل كل شيء في صورة الرجل الورع المتمسك أشد التمسك بأوامر الدين . . وأنه كان يحج إلى مكة مرة كل عامين[٤٧]، وأنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة مع الصلوات المفروضة » أ. هـ .

فهو يرى ، أن هذه الصورة غير الصورة المعروفة ، عن هارون الرشيد ، حيث صورته قصة « ألف ليلة وليلة » في صورة الملك المرح ، ولكن هذا (المرح) أغضب المؤرخين ، فصوروه في صورة الورع المتمسك بالدين . . . الخ .

فكل المؤرخين في نظر (ديورانت) كاذبون مزيفون ، ساءهم مرح هارون الرشيد ، فاخترعوا له صورة (معكوسة) (عكس الواقع) .

---

(٤٥) نفسه ، ١٣٤ .

(٤٦) نفسه ، ١٣٦ .

(٤٧) لعله من دقيق الملاحظة أن نقول : إن ديورانت غيّر عبارةَ المؤرخين في هذه الجملة فهم يقولون دائما « كان هارون الرشيد يحج عاما ويغزو عاما » فغيرها إلى « يحج كل عامين » وكأنه تعمد إسقاط الغزو (صورة الغازي) من صفات هارون الرشيد ، وأقول : أولا ـ لأنه لا يطيق شعوربا ولا نفسيا أن يخط بيمينه أنه كان غازيا لقومه ، وثانيا ـ حتى يحمي المواطن الأوربي الذي كتب له أصلا ، فلا يشعر بأنه كان يوما (يُغزى) من هؤلاء الذين يستعمرونهم ، وثالثا ـ حتى لا يشعر القارىء المسلم إذا قرأ كتابهٍ أنه كان يوماً مّا (غازيا) لهؤلاء السادة الذين يستعمرونه ، فيطمح إلى أن يعيد هذا التاريخ ، وإلا فخبرني بربك كيف غير العبارة الرشيقة (يغز عاما ويحج عاما) وشطرها نصفين ، فباح بنصف ، وكتم النصف الآخر أبشع كتمان .

وهكذا يفعل (منهج العكس) عند علماء الاستشراق وفي أبحاثهم (٤٨).

(وبعـــــد)

فمازال أمام القول مجال فسيح ، لعرض نماذج لخيانات المستشرقين والغربيين للمنهج العلمي - فيما يكتبونه عن الإسلام والمسلمين - وأدلة ناطقة تشهد بأن هذه الكتابات لا يصح أن تسمى علما ، ولا بحثا .

وإن كنا قد رفعنا القلم عن القرطاس الآن ، فذلك للالتزام بالمساحة المتاحة ، والقدر الممكن في هذا المجال . . .

والله من وراء القصد . وهو نعم المولى ونعم النصير . .

(٤٨) ول ديورانت - قصة الحضارة : الجزء الثاني من المجلد الرابع ص ٩٠ - ٩١ .

المصـــادر والمراجـــع

* باول شميتز :

١ - الإسلام قوة الغد العالمية (ترجمة الدكتور / محمد عبد الغني شامة) مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الثانية - بدون تاريخ .

* جاك بيرك :

٢ - محاضرة بعنوان (التواصل بين الحضارات) ، ألقيت بالدوحة ، ضمن برنامج نادي الجسرة الثقافي لسنة ١٩٨٨ /١٩٨٩م .

* ابن جرير الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير :

٣ - تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف - مصر - ١٩٦٤م .

* أبو الحسن الندوي (العلامة) :

٤ - الإسلام والمستشرقون - ندوة العلماء لكنو - الهند - ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م .

* خير الدين الزركلي :

٥ - الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٧٩م .

* دونالد مالكولم :

٦ - جامعة القاهرة والمستشرقون (ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم) . بحث منشور ، بمجلة الثقافة العالمية - عدد ٣٨ ص ١٨ ، ١٩ تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت .

* روجيه جارودي :

٧ - مبشرات الإسلام - عن مجلة الأمة عدد ٢٤ ص ٢٣ ، عرض عبد القادر سيلا .

* الزمخشري : جار الله أبو القاسم . محمود بن عمر .

٨ - أساس البلاغة - دار صادر - بيروت - ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

* د . عائشة عبد الرحمن ، بنت الشاطيء :

٩ - تراثنا في الشرق والغرب ، محاضرات مطبوعة على الآلة الكاتبة ألقيت على الدارسين بمركز تحقيق التراث القومي ونشره ، بوزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

* د . عبد الحليم محمود ، الإمام الأكبر:
١٠ ـ أوربا والإسلام ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٦م .
* د . عبد الرحمن بدوي :
١١ ـ موسوعة المستشرقين ـ دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٤م .
* د . عبد العظيم الديب :
١٢ ـ المستشرقون والتراث ، دار الوفاء بالمنصورة ، مصر ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .
١٣ ـ أبو القاسم الزهراوي أول طبيب جراح في العالم ، دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .
* دكتور / علي سامي النشار :
١٤ ـ مناهج البحث عن مفكري الإسلام ـ دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧م (طبعة ثانية) .
* عماد الدين خليل : دكتور.
١٥ ـ في التاريخ الإسلامي : فصول في المنهج والتحليل ـ المكتب الإسلامي بيروت ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .
١٦ ـ المستشرقون والسيرة النبوية ضمن كتاب مناهج المستشرقين : ١١٣/١ ، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج بالاشتراك مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ الرياض ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .
* فان فلوتن :
١٧ ـ الدولة الأموية والمعارضة (مدخل إلى كتاب السيطرة العربية) ترجمة إبراهيم بيضون ـ دار الحداثة بيروت سنة ١٩٨٠م .
* محمد أسد :
١٨ ـ الإسلام على مفترق الطرق ، (ترجمة د . عمر فروخ) دار العلم للملايين ـ بيروت ، الطبعة التاسعة ، ١٩٧٧م .
* د. محمد البهي : الدكتور : المفكر الإسلامي المعاصر ـ رحمه الله .
١٩ ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، مكتبة وهبة ـ القاهـرة ـ ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م .
٢٠ ـ مقدمة كتاب الإسلام قوة الغد العالمية ـ لبول شميتز ، مكتبة وهبة القاهرة .

* محمد فتح الله الزبادي : الدكتور :
٢١ - ظاهرة انتشار الإسلام . وموقف بعض المستشرقين منها - المنشأة العامة للنشر والتوزيع - طرابلس الجماهيرية العربية الليبيه (سلسلة الكتاب الإسلامي رقم ٤ - أكتوبر سنة ١٩٨٣ .

* محمد قطب الاستاذ . المفكر الإسلامي المعروف .
٢٢ - مذاهب فكرية معاصرة ، دار الشروق - القاهرة - بيروت - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

* د . محمود قاسم رحمه الله : العميد الأسبق لكلية دار العلوم / جامعة القاهرة .
٢٣ - الإمام عبد الحميد بن باديس - الزعيم الروحي لحرب التحرير ، الجزائرية - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٩م .

* محمود محمد شاكر : أستاذنا الجليل :
٢٤ - رسالة في الطريق إلى ثقافتنا - سلسلة كتاب الهلال رقم ٤٤٢ صفر ١٤٠٨هـ - أكتوبر ١٩٨٧ م .
٢٥ - لمحة من فساد حياتنا الأدبية - انظر كتابه (المتنبي) مطبعة المدني - القاهرة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م .

* د. محمود محمد الطناحي : الدكتور : المحقق المعروف .
٢٦ - مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي - مكتبة الخانجي - القاهرة ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

* د . مصطفي السباعي رحمه الله :
٢٧ - الاستشراق والمستشرقون ، المكتب الإسلامي ، بيروت - الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

* مونتجومري وات (مستشرق معاصر) :
٢٨ - محمد (صلى الله عليه وسلم) في مكة ،
٢٩ - محمد (صلى الله عليه وسلم) في المدينة - كلاهما تعريب شعبان بركات - المكتبة العصرية ، صيدا - لبنان - بدون تاريخ .

* ول . ديورانت :
٣٠ - قصة الحضارة (ترجمة محمد بدران)، جامعة الدول العربية - مصر ١٩٦٤م .